أمير تاج السرّ

منتجع الساحرات

رواية



منتجع الساحرات

صدر للمؤلف:

في الرواية:

- **كرمكول**، د ار الغد، القاهرة ١٩٨٨.
- **سماء بلون الياقوت**، دار أزمنة، عمان ١٩٩٦.
- **نار الزغاريد**، شرقيات القاهرة، ١٩٩٨.
- **توترات القبطي**، ط ١ ثقافة للنشر، أبو ظبي؛ ط ٢ الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٩.
- **زحف النمل**، ط ١ دار العين، القاهرة ٢٠٠٨؛ ط ٢ ثقافة للنشر، أبو ظبي ٢٠١٠.
- **العطر الفرنسي**، الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٩.
- **صائد اليرقات**، ط ١ ثقافة للنشر، أبو ظبي؛ ط ٢ دار الاختلاف، الجزائر ٢٠١٠.
- **تعاطف**، ثقافة للنشر، أبو ظبي ٢٠١١.
- **رعشات الجنوب**، ثقافة للنشر، أبو ظبي ٢٠١١.
- **أرض السودان - الحلو والمر**، الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠١٢.
- **اشتهاء**، دار الساقي، بيروت ٢٠١٤.
- **مهر الصياح**، ط ١ دار ورد، سوريا ٢٠٠٤؛ ط ٢ الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٨؛ ط ٣ دار الساقي، بيروت ٢٠١٥.
- **٣٦٦**، الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠١٣، ثلاث طبعات.
- **طقس**، بلومزبري، قطر ٢٠١٥.
- **إيبولا ٧٦**، دار الساقي، بيروت؛ ط ١ ٢٠١٢، ط ٢ ٢٠١٥.

في السيرة:

- **سيرة الوجع**، دار أثر، الدمام ٢٠١٣، طبعتان.
- **مرايا ساحلية**، ط ١ المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٠؛ ط ٢ دار العين، القاهرة ٢٠١١.
- **قلم زينب**، وزارة الثقافة، قطر ٢٠١١.

في الشعر:

- **أحزان كبيرة**، وزارة الثقافة، قطر ٢٠٠٥.

في المقالات:

- **ضغط الكتابة وسكرها**، دار العين، القاهرة ٢٠١٣.
- **ذاكرة الحكائين**، الربيع العربي، القاهرة ٢٠١٥.

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

أمير تاج السر

منتجع الساحرات



دار
الساقي

© دار الساقي 2015
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-883-5

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114-2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi

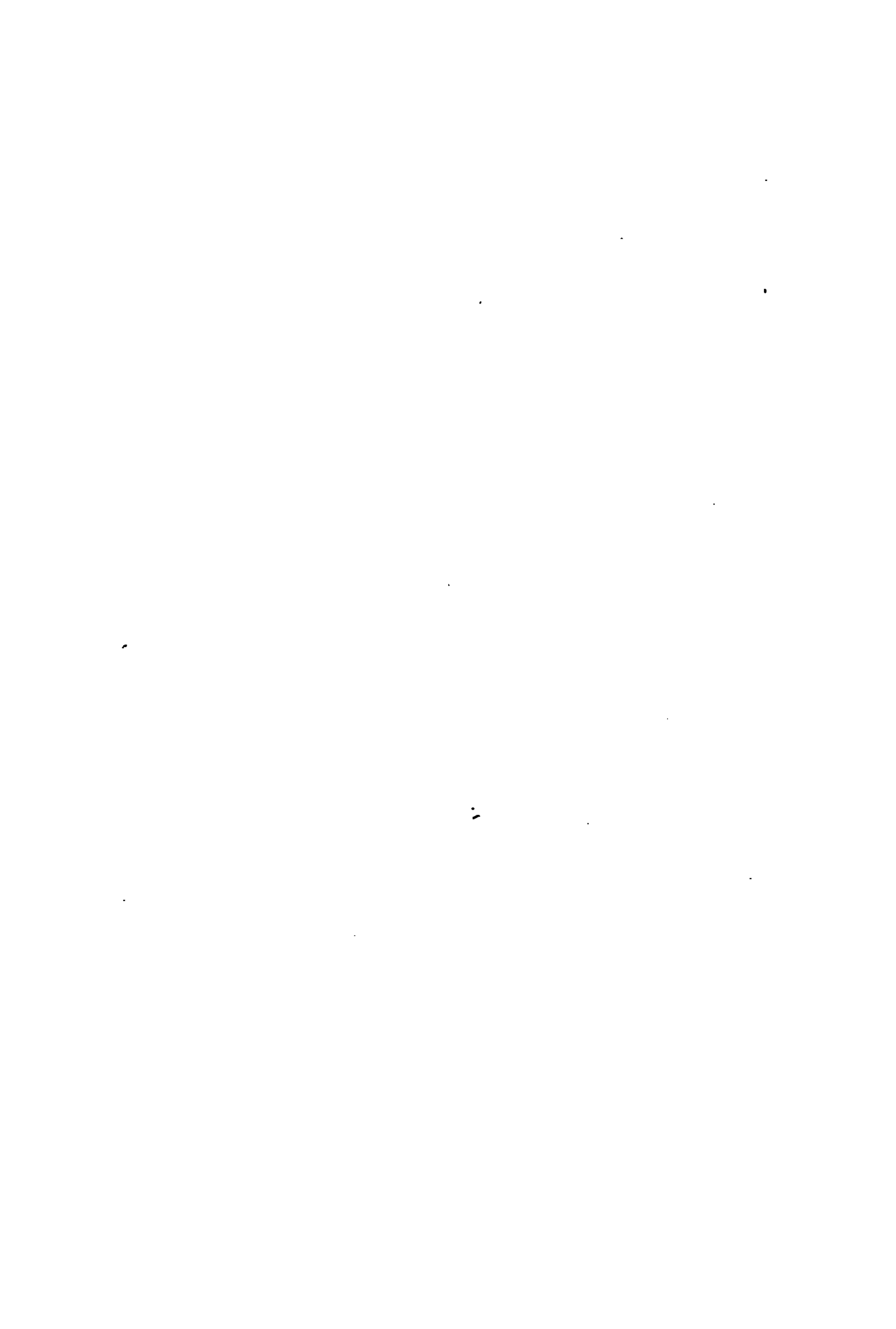
دار الساقي

Dar Al Saqi

أنا جسر الحطب.
أنا النخلة التي داستها ذبابة.
أنا الرقدة الطويلة،
لراقدٍ في رقدة طويلة.
والرقدة القصيرة جداً لمتعجّلٍ
يودّ اللحاق بفتاة.
أنا قصيدة الشاعر
والشاعر قصيدتي.
كتبت نفسي وكتبني الشاعر.
وسنكتب معاً فتاة الجيران،
وربما نكتب تلك الغجرية،
نسميها حمامةً... بجعةً،
أو دكةَ الطين.
وسنكتب في أيّ وقتٍ
لا نكون مشغولين فيه،
رائحةَ انتصار
أو رائحةَ خيبة... لا فرق.



هذه ليستِ القصةَ الحقيقية لعبد القيوم دليل، الذي تعرفت إليه ذاتَ يوم في عنبر الحوادث بمستشفى بورتسودان، ولا القصةَ الحقيقية لحبيبته بائعةِ الشاي اللاجئة، الجميلة جداً أببا تسفاي، التي تعرفت إليها في عَنبر الحوادث أيضاً، لكنها قصةٌ موازية. فقط النهايةُ واحدة، نهايةُ الواقع ونهايةُ النص.



باب الدخول

كان عاماً عادياً، مثلَ معظم أعوامٍ تجيء وتمضي. لا خطبَ جللاً بمعنى الخطب الجلل، لا زلازلَ ذاتَ روحٍ تدميرية، لا براكينَ خامدة أو مهتاجة، ولا مفاجآتٍ يمكن أن تغيّرَ نمطاً متأصلاً لشعبٍ ما، كأن تذوب الديكتاتوريات فجأةً، في أنهارٍ من الديمقراطية، كأن يعتذرَ الظلمُ المتأصل في الدنيا، للضحايا المظلومين، كأن يخافَ الجوع، وتستحيَ قلة الحياء، أو تنفعلَ جماهير كرة القدم العريضة أمام فقرةٍ ثقافيةٍ بلا جماهير في العادة، وردت في كتاب.

نحن في جزءٍ يبتعد قليلاً عن الشاطئ، في المدينة التي تقع على ساحل البحر مباشرة. يسميه سكان المدينة "منتجع الساحرات" بلا سبب معروف أو موثق لذلك، ولعله ناتجٌ من أسطورة أو خرافة، من تلك التي يتناقلها الناس عادةً، وتسميه الأوراق المسجلة رسمياً في مصلحة المساحة، وإدارة الأراضي "ساحة المزاد".

كان في ما مضى بساطاً ذهبياً من الرمل الناعم، تفترشه البهجة الكبرى حين تأتي مواسم الأعياد، حيث تنصب فخاخ الرزق

المتنوعةُ لتصطاد المعيّدين، خاصةً الأطفال.

تُغرس الأراجيح الدوارة في المكان. تُغرس لعبة المنطاد الطائر، والحصان العملاق ذي الأجنحة، وتنتشر ألعابٌ شعبية مثل الغربال، ورغاوي الصابون المبعثرةِ في الهواء، والطبقِ المكفي[1] على جائزة يخمنها المشاركون، والتنشينِ نحو دائرةٍ مرسومةٍ على جدارٍ خشبيّ، ببندقيةٍ محشوّةٍ بطلقات من الفلّين. يأتي "حبيب الله المحبوب"، الحاوي، ذلك الطويلُ الأعرجُ، الغامضُ بحذائه الباتا المنقط، ولحيتِه الطويلة البنيّة وملابِسه المزركشة الشبيهة بملابس النساء، من حيث لا يعرف أحدٌ، يتوسط خيمةً من القماش الأخضر، مزدحمةً وضاجةً، رسم على مدخلها وجهُ شيطان أسودَ بعدة قرون وأنياب، كُتب تحته: ابتعد من فضلك. يأكل النار وأمواس الحلاقة المسننة، يخترع البطّ والأرانب البرية، والسلاحف الملونة، واللمبات المضيئة بلا كهرباء، ويشقّ مرافقتَه القصيرة، الرشيقة جداً "سِرسورة" إلى نصفين متساويين. في طقس يرتعب منه المشاهدون ويرغبونه في الوقت نفسه، ثم يذهب إلى حيث لا يعرف أحدٌ، ويعود في موسم جديد.

كان أكثرَ ما يحيِّر في طقس حبيب الله المحبوب، وصاحبتِه سرسورة أنهما لم يتغيَّرا ولم يشيخا قطّ، برغم تردّدهما على مواسم الأعياد لأكثرَ من عشرين أو خمسةٍ وعشرين عاماً، مساهمَين بقوة في بهجة ثلاثة أيامٍ مختلفة يُنفقها الصغار والكبار على حدٍّ سواء،

[1] أي المقلوب

وانّ أحداً لم يشاهدهما في المدينة أو أيّ مدينة أخرى، في غير مواسم الأعياد منذ أن ظهرا لأول مرة، وحتى اختفيا نهائياً.

عندما تغيرت طقوس العيد بتغيّر الزمن بعد ذلك، نفض جيوب الخواء من كل جديد ومبهج، واختفى المحبوب وصاحبته الرشيقة، واقتصرت البهجة على مصافحات الأيدي، واللمعة الفقيرة في عيون الصغار، وجملتَي: "كل عام وأنتم بخير" و"بالصحة والسلامة"، اللتين يطلقهما الجميع آلياً، جاءت فكرة تحويل المكان إلى ساحة للمزاد من قبل مستثمرين، أذهلتهم مساحته، وأعجبهم موقعه القريب من وسط المدينة، وتجمّع المواصلات العامة إلى جميع الأحياء، وتمّ تنفيذها على الفور.

رتق الظل الذي كان ممزقاً أو منعدماً تماماً، بنبات اللبلاب المتسلق السريع النمو وفروع من شجر النيم الوارف، غرست بعناية، وخيام من القماش الباهت، الثقيل، يمكنها أن تساهم بالظل وإيواء السلع.

اختُرعت نسماتٌ باردة، برذاذ من مياه الخراطيم المربوطة إلى سياراتٍ شبيهة بسيارات الإطفاء، وأيضاً بجرادل من المياه الضحلة، جلبت من الخيران[1] القريبة، وفي أيام قليلةٍ انتشر البيع والشراء كأنه كان موجوداً أصلاً ولم يوقد حديثاً.

بيعٌ وشراءٌ وبيعٌ وشراءٌ أشدُّ... وقوافلُ من المال الحيّ تأتي راكضةً، من كل شبرٍ في المدينة، تلقي برحالها في المكان وتذوب...

---

١ جمع خور، وهو نهر صغير.

كان الحكي المفترض أنه عاديٌّ، لا يتمُّ إلا بالصراخ، كذلك النداءاتُ على السلع المتنوعة، وأحياناً بالفوضى والنزق، ودائماً ما يوجد نصبٌ واحتيالٌ، وعراكٌ متكررٌ بسببٍ وبلا سببٍ، وتطرّفٌ أعمى في الجوع والشبع، وإفراز الغدد لأيّ نوع من الهرمونات، ومجترفون في حيل المزادات، بعضهم من أهل الساحل وبعضهم من المدن المجاورة ومن عمق أفريقيا والعالم البعيد أيضاً، يتكاثرون في المكان، يستبدلون أشياء عالية القيمة بأشياءَ تافهةٍ، وأشياءَ تافهةٍ بأشياءَ أتفهَ منها.

حتى مبيداتُ القمل والصراصير، ومزيلات العرق ومرطّبات الوجه والأجولة[1] الفارغة، وحبوب اللقاح، ومدرّات الخصوبة لدى النساء، ومقوّيات المتعة عند الرجال، كانت تحلّق، وسيارات الخدمة العامة القديمة، التي أعفيت عن العمل منذ زمن، كانت تجد من يسندها ويمسك بيدها في آخر العمر.

ولمع في تلك الفترة أفرادٌ في المجتمع، ما كان لهم أن يلمعوا بهذه الصورة الفذة، لولا موهبة المزايدة الخطرة، حتى أنهم أصبحوا نجوماً تحيط بهم هالات الضوء، وتطاردهم الشائعات، وجيوش مصلحة الضرائب ودواوين الزكاة. لمع إبراهيم عبد الله لحية، المتخصص بالساعات والكاميرات الضوئية، وشعبان الضاحك، الذي كان في الأصل، صياداً للسمك، وتكتك، وابن النمل، والشيطان الرجيم، لاعبو كرة القدم السابقون، بطريقة

[1] جمع جوال، وهو جوال الخيش المعروف.

أفضل من لمعانهم القديم، وكادت أن تلمع سمية مبروك، كأول امرأة تستخدم صوتها المغوي، الناعم، في المزايدة، لولا أن ورماً في اللسان، أصابها، فاختفت.

لم يكن غريباً قطّ أن تجد لصاً يسطو على بيتك في الليل، ويبيعك أشياءك المسروقة نفسها، في النهار، ومتسولاً صادفته عشرات المرات، في أماكن عدة، وأعطيته صدقاتٍ بدافع العطف، يصيح منادياً على خروف أسترالي، أو حلةِ ضغطٍ من ماركة بريستو، أو دراجةٍ نارية من نوعٍ "فيسبا"، أو "ياماها"، جاء يستبدلها بأخرى أنظف، وأكثر بريقاً، وقيل إن مرضى فقراء من عامة الشعب، جاؤوا وعلى ظهورهم أسرّة كانوا يرقدون عليها في المستشفى الحكوميّ الكبير، والحفة كانوا يتغطون بها، وباعوها هناك، وألقي القبض على دايةٍ في قسم النساء والتوليد، كانت تعرض مولوداً غير شرعيٍّ للبيع كانت التقطته من أمٍّ صغيرة، طالبة في مدرسة ثانوية، أنزلته في المستشفى على عجل، وفرّت في إحدى الليالي.

ولن يستطيع من عاصروا فترة ازدهار المزاد تلك أن ينسوا ذلك اليوم الذي عثر فيه القبطان "دشدش"، خبيرُ خطوط الملاحة الشهم، وقائد العبّارة الوطنية "جوردون باشا"، على نظارته الطبية الغالية، المفقودة منذ زمن، معروضةً للبيع بسعرٍ لا يمكن حتى أن تعرض به نظارةٌ طبية لمتسوّل، وكيف صاح الرحالة الموزمبيقي العجوز ناماتو كيجا الذي زار البلاد مرةً، وخصص وقتاً صغيراً لزيارة ساحة المزاد، متعجباً، حين شاهد تمثالاً متوسط الحجم لبوذا،

من الخشب الداكن، نحتته زوجته منذ أربعين عاماً، ونحتت عليه اسمها، معروضاً لدى تاجر تحفٍ رخيصة، لم يسمع بموزمبيق، ولا ببوذا، ولا بزوجة رحالة عجوز هوايتها نحت التماثيل.

تلك الأيام كان للعملة الوطنية وقارٌ وهيبةٌ شديدان، وكانت للشراء قوة ضارية، وكان للقرش النحاسيّ العادي المتوافر لدى كل الناس، ابتداءً من المتسولين وعمال اليومية العاديين إلى رؤساء الحكومات، صوتُه الجهوري الذي يُسمع في أقصى بقاع الأرض.

في إحدى السنوات، عندما انتفخت حركة السفر من المدينة إلى العاصمة والمدن الأخرى، بعدما ازداد عدد السكان، وأنشئت الشوارع المسفلتة الممتدة، وضاق مكانها القديم الذي كان موقفاً صغيراً في وسط المدينة تقريباً، وأصبح من المستحيل احتواء الزحام ومضاعفاته من عراكٍ وسبابٍ وسرقاتٍ، واختطافاتٍ، واحتكاكاتٍ، وتحرشاتٍ جنسية، وضياع أطفال، لم تجد السلطة المحلية أنسب من ساحة المزاد لتحويلها إلى موقف لباصات السفر.

أُعفيت أشجارُ النيم وأفرعُ اللبلاب المتسلقةُ فجأةً من خدمة بثّ الظل بفظاظةٍ حين جُزّت من جذورها. أُعفي الهواءُ الناعم، من النعومة بفظاظةٍ أيضاً، مُزّق الضجيج المصاحب للبيع والشراء، بالضجيج المصاحب لحركة السفر، استُبدلت أبسطة الرمال الذهبية بأطنانٍ من الإسفلت، وطُرد المزايدون المستقرون زماناً في المكان وأبوا الخروج طواعيةً، وتجمهروا يتمزقون غضباً، طردوا بكثافة الشرطة، والعصي المطاطية، والغاز المسيل

للدموع، واعتقل من صنفوا منهم قادةً لما سمّي رسمياً تمرد ساحة المزاد، وشعبياً انتفاضة منتجع الساحرات، ليحاكموا بخشونةٍ في ما بعد.

جاءت الباصات من ماركات تاتا وبدفورد وفوكسول، وميتسوبيشي، وباصات نزقة وصلبة الظهر، عُدّلت محلياً من سيارات دفعٍ رباعي مكشوفةٍ إلى باصات. أنشئت أكشاك بيع التذاكر من الخشب والطوب الأبيض والصفيح، وألصقت العلامات الإرشادية واللافتات الدالة على جهة السفر في الجدران والأعمدة، وأنشئ لغطٌ جديدٌ على خلفية اللغط القديم، لدرجة أن الناس نسوا لاحقاً ماذا كان يوجد في تلك الساحة القديمة، التي لا يزال يطلق عليها منتجع الساحرات، برغم تبدلها الشديد.

في ذلك المكان، وقريباً من أكشاك بيع التذاكر، كانت تجلس حواء وسعيدة وسيدة الجيل، بائعاتُ شاي مسناتٌ، جافاتٌ، تخطين الخامسة والستين منذ زمن ولا يزلن صلباتٍ إلى حدٍّ ما. كانت لهنّ ذكرياتٌ صدئة يحاولن تلميعها بالثرثرة بين حين وآخر، وحواسٌّ ما عادت نقيةً ولا لماحة ولا تحمل أيَّ بصمةٍ مميزة، وعيالٌ مات بعضهم، وهاجر بعضهم للعمل في دول الخليج العربيّ أو أوروبا، ولا يزال البعض جياعاً في المنازل أو الطرق، ينتظرون الطعام.

كنّ ولدن جميعاً في الساحل، وفي أحياء شعبية تجاور بعضها البعض، وتتشابه في كل شيءٍ، حتى في أسماء المواليد، وطقوس الأعراس والختان، وفي أنواع الأكل والشرب والملابس. عملن

في موقف السفر القديم منذ وجد، في عمل الشاي، وانتقلن، مع الضجة الجديدة، إلى منتجع الساحرات.

كنّ يجتهدن في عمل الشاي ويضفن إليه الكثير من توابل الحماسة، يغلينه على مهل ويعطرنه بالقرفة والحبهان والنعناع وروح القرنفل، ويوزعنه في أكواب من الزجاج الأخضر والأحمر الشفاف، والمشجّر، متبوعاً بضحكاتٍ قديمة وغزلٍ تقليدي لم يرد أن يتطوّر إلى غزلٍ حديث، وربما ببدايات لسفاهاتٍ تظل هكذا لا تكتمل أبداً، لكنها تربطهن بجو المكان العام.

كان متذوقو شايهنّ على نفس الشاكلة، ودرجة المواطنة تقريباً: موظفون في المكان، وسائقو سفر متمرّسون، ومساعدون للسائقين، ومسافرون عاديون، وعابرون بلا سبب، وعاطلون عن العمل وجدوا في الساحة شيئاً من المتعة والشبق، حتى لو كان مجرد نظراتٍ بلا مغزى يتتبعون بها النساء المسافرات أو المودعات، أو العاملات في المكان...

في الرواكيب[1] الضيقة المصنوعة من الخشب الخشن، والمعروشة بجريد النخيل اليابس في الغالب، كان يستريح السفر قليلاً، ويعدّل المزاج بشيءٍ من الشاي والقهوة. تأخذ سجائر "البرنجي" المحلية الرخيصة حصةً كبيرةً لدى الزبائن، وتأخذ أشياء أخرى، مثل السياسة المنتقدة دائماً، وكرة القدم، والمشاكل التي تعني أحداً أو لا تعني أحداً، والأحلام المجهضة

[1] جمع راكوبة، وهو مظلة معروشة بالبوص وجريد النخل، تستخدم في السودان.

قبل تكوّنها مثل أحلام الهجرة إلى أوروبا، والزواج بفاتنة السينما صوفيا لورين، واكتساب شهرة لاعب الكرة المميز سقراط، حصصاً متفاوتة. كان السهر في ذلك المكان يومياً وإلى آخر الليل، وكانت الشتائم النابية حاضرةً أيضاً وبقوةٍ كبيرة، ويزداد حضورها كثافةً كلما هزم فريقٌ كرويٌّ من فرق المدينة أو العاصمة، فريقاً كروياً منافساً، أو اغتاظ غيظٌ عاديٌّ من غيظٍ آخرَ عادي، أو انقلب عسكريٌّ مغمورٌ، بغتةً، على حاكم متمترسٍ منذ زمن في ساعةٍ من ساعات الصباح الأولى، كما يحدُث بين حين وآخر، أو انتفخ أحدهم بالعرق الرخيص، في حيّ الصهاريج، ذلك الطرف البعيد من المدينة، في الجانب الجنوبي منها، حيث الخمّارات العشوائية، وبنات الهوى المستهلكات، وتجارة مخدر البانجو التي لم تستطع السلطة إجهاضها قطّ، ثم جاء إلى المكان مفتعلاً مشكلة، أو متحرّشاً بامرأة.

كان دور البائعات حيادياً وبارداً في الغالب: توفير الظل والنكهة والثرثرة المسلية، والشهادة لمصلحة الرزق إذا وثب الأمر إلى بعيدٍ، لكن الأمر لم يكن يثب إلى بعيدٍ كثيراً، فسرعان ما كانت تكسر أجنحته، وتقلم أظفاره بالوسطاء الذين يدخلون بحسن النوايا وسوئها في الوقت نفسه، وتعود الفوضى العادية إلى المكان.

وكان المزايدون القدامى الذين شتّتوا، ورُحِّل نشاطهم إلى طرفٍ بعيدٍ غير مطروقٍ في المدينة، لا توجد قربه أيُّ خطوطٍ للمواصلات، يأتون أحياناً بعادة الحنين، يسألون بعادة السؤال، عن خشبٍ قديمٍ، أو

حديدٍ تالفٍ، أو جليسةٍ للأطفال، أو لا شيء على الإطلاق، وينادون بعادة المناداة القديمة على الحديد الخردة، وسياراتٍ حكوميةٍ قديمة غير موجودة. كان حنينهم يواجه بالضحك من رواد السفر، وكانت ريالاتهم السمينة، سرعان ما تجف.

في ذلك المكان تشاغب "عبد الباسط شجر"، الرئيس الرسمي المكلف بمراقبة موقف السفر مراتٍ عدة، أبرزها حين عضّ أذن مساعده المراهق الإثيوبي، ناهوم عرجا، عندما هزم فريقُ النجوم الكروي، فريقَ الشعلة المنافس، الذي يشجعه، في دوريّ الدرجة الأولى المحلي، وارتدى المراهق عنوةً شعارَ الفريق الفائز: قميصاً أصفر من التيل الناعم، رسمت عليه نجومٌ حمراء. وحين عضّ أذن مساعده مرةً أخرى، عندما ادّعى ذات يوم أن عبد الباسط شجر والده... وحين عضها للمرة الثالثة، في ذلك اليوم المشهود الذي انهارت فيه أحلامه، بالزفاف من امرأة أشعلت غريزته بلا قصدٍ، وهو مسنٌّ، أرملُ، تجاوز الستين.

في المكان نفسه، انكسر عبد الباسط شجر أيضاً، أصيب بنوبةٍ حادةٍ من حمى القاذورات نادرة الحدوث، وصعبة الشفاء، ولا يعرفُ أحدٌ من أين التقطها، لكنه شفي وعاد سيداً للمكان، واعتادت عينا عباس سالم، عامل الصحة المسؤول عن رش المبيدات، الملقب بالموت، لأنه مات مرة واستيقظ قبل أن يدفن، على التورم وضخ الدموع، كلما أحرجه الجالسون، وتحدثوا بإسهاب عن حبه لإناث الماعز التي يصادق منهن الكثيرات.

وفي المكان نفسه أيضاً، سقط الدرويشُ، صديقُ العالم السفليّ الذي يظهر ويختفي، الوزيرُ السابق كما يدعي، جامعُ النقود الفضة والذهب، ومداوي أمراض الكآبة والحزن حين يقتضي الأمر، سقطته التي لن ينهض من بعدها أبداً.

اجتاح فيضانُ الضحك يوماً ما... وفيضانُ البكاء يوماً آخر، قُسمت، في السر والعلانية، ثرواتٌ لم تجمع قطّ، أُعلنت خطايا بعضها يُغتفر وبعضها لا يغتفر أبداً، وأعلنت توباتٌ قد تقبل في المجتمع وقد تظل تائهةً بلا قبول. نُصّب على دول العالم الثالث الفقيرة، حكامٌ افتراضيون لا يعرفهم أحدٌ، وعُقدت زيجاتٌ سريعة وانفضّت، وكانت قصة الحب التي نضجت بين ثريا، التي كانت مجنونةً بدينةً خامدة العينين ترابط بصفةٍ دائمةٍ في المكان واختفت بعد ذلك، وبين سائق الباص الرومانسي الغريب صالح صلاح، وانتهت بموت السائق مندهشاً من جمال ثريا الذي كان يخبئه الجنون، من روائع حكايات المكان التي لن ينساها الناس أبداً.

بسم الله الرحمن الرحيم
لا حول ولا قوة إلا بالله.
اللهم صلِّ على الحبيب المصطفى.
دهشةٌ وروعة...
سيري وعين الله ترعاك،
البناتُ البسكويت... البنات الحلوى...
البناتُ العسل، وهلمّ جرّاً.

عباراتٌ كثيرة، كبرى وصغرى، قديمةٌ وحديثةٌ، عاريةٌ ومحتشمةٌ، كانت تزدحم في المكان، بعضها مكتوبٌ على ظهر الباصات، وبعضها مشاريعُ لا تزال في الأذهان، لا بدّ وأن تكتب لاحقاً، على أنّ ما يفخر به العاملون في الموقف حقيقةً، تلك النفحة الطيبة كما سمّوها، وهي أن البحث المضني لمن يهمّه الأمرُ هناك، لم يسفر قطّ عن العثور على رجل أمنٍ متخفٍّ، عيّنته السلطة، ليكتب تقارير عن الناس، وكل من اشتبه في أمرهم، واستجوبهم من يهمهم الأمر. كانوا رجال أمن فعلاً، لكنهم يأتون للتسلية فقط، بعيداً عن أيّ تكليفٍ رسمي.

لكن الإريترية أبيا تسفاي، اللاجئةَ الجميلة، المشردة جاءت فجأةً.

ربما كانت الفتاة الصحيحة في المكان الصحيح،

ربما الخطأ في المكان الخطأ.

وربما لا هذا ولا ذاك، ولكنْ فقط فتاةٌ لاجئةٌ، جميلةٌ، مشرّدةٌ، جاءت.

في الداخل

- ١ -

زحف عبد القيوم دليل، بعينيه الحمراوين، المنهكتين حتى التصقتا بالشقوق الضيقة للكشك الأزرق الصغير، المنتصب بعنادٍ في ركنٍ هادئٍ من أركان منتجع الساحرات، أو ساحة المزاد، أو موقف باصات السفر كما سُمّي المكان بعد ذلك.

كان الليل في منتصفه تقريباً، والمكان يبدو ساكناً، وكئيباً، بعدما توقف هرج السفر المعتاد، وبدت باصات النقل الكبيرة رابضةً في مواقفها، كأنها تلالٌ من العتمة، بينما يُسمع بين حين وآخر، ضحكٌ متقطعٌ، أو حركةٌ لشخصٍ يتبوّل واقفاً، أو آخر يحلم، أو يطارد كابوساً لعيناً يعضّ عليه.

كان عبد القيوم منتفخاً بالسكر حتى الدرجة الأولى، ولا يزال، رغم مرور قرابة العام، مخضباً بالزهو أنه أنجز ذلك البناء وحده تقريباً، من دون مساعدةٍ تذكر من أحد.

كان يترنح في وقفته، ويحاول جاهداً مقاومة رغبة تافهة، تلكزه بعنفٍ لاقتلاع الألواح الخشبية والدخول عنوةً، ورغبة أخرى تحرضه على البكاء طويلاً حدّ العويل، ورغبةٍ أخيرة، أن ينهار ويتلاشى إلى الأبد.

كان يتشمّم الهواء بجنونٍ، يضرب أنفه بيده بين حينٍ وآخر، كأنه يحث رائحةً عزيزةً عليه على الإسراع لتستقرَّ في حاسة الشم، أو يطرد رائحةً لا يحبها من بؤر الاستقرار في تلك الحاسة.

كانت خلف أذنه اليمنى بقايا سيجارةٍ يابسة، من ماركة "القندول" الشعبية، أُشعلت مرتين وأُطفئت. في جيب سرواله الكاكيّ المتسخ، الممزّق عند الركبتين، خنجرٌ صغيرٌ ملتوٍ، سرقه أو استعاره من أحد الأعراب في وسط المدينة، وكانوا يحملون الخناجر، عادةً، نوعاً من الأناقة والإبهار، ومن أجل غواية الشرّ أحياناً. يحارب في رأسه جيشاً من الأفكار المبهمة ، وفي داخل عمره الذي تعدى الأربعين منذ فترة، شقوقٌ وحفرٌ لم يستطع أن يردمها أو يرتقها قطّ، ولخطواته التي يجرجرها في المدينة، عادةٌ سيئةٌ للغاية، هي أنها لم تعصَه قطّ.

بمجرّد خروجه، ظهر اليوم، من حبسٍ طويلٍ استمرّ أكثر من ستة أشهرٍ في السجن المركزي، بعدما دخله لسببين مختلفين: مؤامرة نسجت ضدّه، وكسر عصا حكومية لقائد السجن الاحتياطي، وهو ممتلئٌ بالهواجس، ويبحث عن رئيس المكان عبد الباسط شجر، ليقتله أو يفقأ عينه، أو يقبّله في رأسه، أو يلعبا

معاً لعبة ورقٍ حامية.

لا هو ولا عبد الباسط شجر، ولا أيٌّ من المتسكعين في المكان، كان يعرف ماذا سيحدث، حتى تلك اللحظة، لكنه لم يجده. وقال له شابٌّ يجلس على مكتبه، ولم يشاهده من قبل، إنّ رئيسه، تزوج حديثاً من امرأة يحبها منذ زمنٍ بعيد، ويقضي شهر العسل في منتجعٍ قريبٍ على شاطئ البحر، لكنه لا يعرف متى سيعود.

يبحث عن مساعد شجر الذي يعرفه منذ زمنٍ، المراهق ناهوم عرجا الإثيوبي، واحتكّ بعشرات المراهقين الذين يماثلونه في الهيئة، وسخافة الوجه، والعينين الصغيرتين العمشاوين، ويحملون رائحة جلد السمك المثيرة للغثيان، التي يحملها، ليكتشف أنهم غرباء، لا علاقة لهم به، وعرف في آخر الأمر، ومن الشاب نفسه الذي يجلس على مكتب شجر ولا يدري إن كان صدقاً أو كذباً، أن ناهوم عرجا لم يعد مساعداً مغموراً، قابلاً للاستفزاز والسخرية، وموت الأحلام داخله في موقف باصاتٍ ضاجٍّ وفوضويّ، فقد استثمر رائحة جلده الملعونة أخيراً، وهاجر بها إلى أوروبا.

أوروبا؟ كيف ذلك؟

هذا ما حدث. ولا أحد يدري.

سأل عن عثمان زوحي، الذي لم يكن حقيقةً، وكان مجرد اسم بلا شخصية خطر له فجأةً وهو في قمّة السكر والتوجس، فقيل له:

متوافرٌ بشدة، وستجده بالتأكيد.

كانت بائعات الشاي المسنات: حواء وسعيدة وسيدة الجيل، متوافرات في المكان، وتزدحم أبسطتهن بالزبائن، من سائقين وعابرين ومسافرين، فخاطبهنّ بازدراء سكران، وفوضى في انتقاء الألفاظ وبثها، سائلاً عن البديعة أبيا تسفاي، والآخرين، فلم تجبه أيٌّ منهنّ، ولن تجيبه أبداً، ذلك أن عبد القيوم ما عاد في نظر الجميع، أخاً ولا صديقاً، ولا ابناً، ولا عمّاً ولا خالاً، ولا ولداً للجيران، ولا متبطلاً رائعاً، ولا حتى حشرةً طنانة، يمكن أن تلفت النظر.

لم يكن الدرويش موجوداً في المكان، كما هو متوقع، وعرف مصادفةً، ومن أشخاص يشاهدهم لأول مرة، أن الدرويش سقط بمجرد أن عرف أن الدروشة أصبحت علماً نظرياً متطوراً، وأن خمسة دراويش جدداً من خريجي مدرسة الدروشة الثانوية التي افتتحت منذ عامين، ولم يسمع بها من قبل، في طريقهم الآن إلى موقف السفر، لتسلّم وظائفهم في التمتمة، والطواف بالمباخر، وعلاج أمراض الكآبة والحزن بطرقٍ أكثرَ حداثةً، وعباس الموت، عامل الصحة المهم، كان في تلك اللحظة يعمل باجتهادٍ في رشّ الذباب كالعادة، ولم يسأله لأنه غير مهمٍّ في نظره، ولم يأتِ باحثاً عنه...

ذهب إلى حيّ المرابيع، حيّ اللاجئين المسكين، الذي يبكي منذ وجد، ولا تجف دموعه، بحثاً عن صاحبته الفاتنة أبيا تسفاي، التي ربما تتّسخ الآن بإرادتها أو بغير إرادتها، في وحلٍ من أوحاله المتعددة، ولم يجدها، أو لم يستطع أن يجدها، أو

خبئت عنه ويستحيل أن يجدها، أو ليست هناك في الأصل، ولن يجدها.

سأل عن صاحب السجن، اللاجئ الإريتري قمزحاي تيرسو، الذي زامله ساعتين فقط في الحجز الاحتياطي، في أوّل يوم دخله، وقبل محاكمته، تبادلا فيهما الصدق والكذب على حدٍّ سواء، وتعاهدا على لا شيء تقريباً، فقيل له:

لم يسكن هذا الحيّ قطّ سجينٌ سابق اسمه قمزحاي، والذين يحملون هذا الاسم هنا، أرستقراطيون، مزقت الحرب غطرستهم، لكنهم لايزالون يتبعون حمية في الطعام، يركضون نصف ساعة في اليوم، ويلعبون تنس الطاولة بكرات من القطن على طاولاتٍ من الكرتون.

سأل عن أبرهام لولي، الاسم الآخر لقمزحاي، وكانت الإجابة صادمةً أيضاً: يوجد لولي، ويوجد أبرهام، ولكن لا يوجد أبرهام لولي...

ذهب إلى حيّين آخرين من الممكن أن يضمّا لاجئةً مشردةً، ولاجئاً من نزلاء السجون، وأيضاً لا أحد يعرف، ولا أحد يودّ أن يعرف.

مرّ على حيّ الصهاريج سريعاً، انتفخ بربع زجاجة من العرق الرديء، المصنوع من التمر الخشن الرخيص، من أول بيت صادفه، ولم يكن بيت صاحبته الخالة مستورة، وعاد إلى منتجع الساحرات، أكثر تهيجاً، وابتدأ يتحسّس.

- ٢ -

عبد القيوم دليل جمعة...

في عهد الشقاوة الأولى، وقبل أن يبلغ العشرين، كان لقبه عبد القيوم النحيل، ولم يكن نحيلاً قطّ في يوم ما، لكنه لم يكن بديناً كذلك، كان لقبه أيضاً هايلا الإمبراطور، ولم يكن يعرف من هو هايلا، ولا أين كانت تقع إمبراطوريته، ولا ما هو وجه الشبه بين متشرد وإمبراطور. ولقبته واحدةٌ من صديقاته المستهلكات، في حيّ الصهاريج البعيد، بحلّة الطبخ، وكان لقباً ظالماً، وتعسفياً، لأنه لم يكن يشبه حلل الطبخ في أيّ شيء، حتى في الغليان. وأدت تلك الألقاب المتعددة غير المتجانسة، إلى ارتباكه وتردّده في الإجابة، إن صادف وناداه أحدٌ باسمه عارياً بلا لقب.

كان عبد القيوم أحد مجرمي سن المراهقة، أحد الذين خاضوها بعنف فنانٍ مميز، وخرجوا إلى الصبا إما مطرودين أو مساجين، وبالطبع، ضائعين، وعاطلين عن العمل بجدارة.

كان يعرف أن اللاجئة "أببا" تحب سمك "السيجان" الرخو،

وحلوى "الحلقوم" ذات السمعة الطيبة لدى الأطفال، والجبن الدنماركي الذي يجلبه بحّارة السفن، مغلفاً بقصديرٍ أحمر جذاب، فكان يزودها بالسمك والحلوى، وجبن البحارة. تحب الغزل المخمور، المعتّق، المستقى من قاع حانات الشعور، فكان يدلقه على أذنيها بتأنٍّ، في أيّ وقتٍ، وهو منشرح. سماها النجمة كثيراً، وسماها الشمس ذات يومٍ مشمس، والبدر الذي يُفتقد في الظلام، لكن مناداته لها بالزهرة البيضاء، كانت هي اللقب الذي اعتمده للسانه وحده، وحرم على ألسنة الآخرين استخدامه.

- كم عاشقاً لأبا تسفاي، هنا أو هناك أو في أيّ مكانٍ حلّت به تلك الزهرة ذات يوم؟

سأل أفكاره التي تتقاتل في الرأس المخمور السؤال نفسه الذي سأله للأفكار نفسها في مناسباتٍ أخرى عديدةٍ من قبل، وسأله العشرات من المتوافرين والعابرين بالمكان لأفكارهم الشخصية.

كم عاشقاً للزهرة البيضاء؟

كانت الإجابة شركاً حقيقياً، فمنذ أن بذرت بائعة الشاي الصبية، الهاربة من نار الحرب في إريتريا، رونقها في موقف باصات السفر، اختلّ توازن الأشياء بشكل مخيف. كبر الصبيان فجأة في أفكارهم ونبضات قلوبهم ليعشقوا، وصغر المسنون المتوافرون أو العابرون في أفكارهم ووجوههم ونبضات قلوبهم فجأةً أيضاً ليعشقوا، كشرت الرواكيب الخشبية الضيقة التي تمنح النكهة والاسترخاء، عن وجوهها، وزحف إلى صدور البائعات العتيقات:

حواء وسعيدة وسيدة الجيل، غلٌّ متطرفٌ سلّحهن بالعداء الظاهر، ووظفهن عسكراً شرِهاً في حرب الرزق التي اشتعلت بينهن وبين اللاجئة الجميلة، لدرجة أنهن فكّرن في قتلها، واستحين بعد ذلك من تلك الفكرة...

كانت أبيا في الحقيقة نموذجاً آخر من النساء ومن بائعات الشاي خاصةً. امرأة بنكهة أخرى، وشاي آخر لم يعرف العابرون مثل مذاقه من قبل، بالرغم من أنه شاي الليبتون الأصفر نفسه، أو شاي سيلان الأحمر، المتوافر في البلاد بكثرة، وربما يكون حتى شاي الوردتين المدرّ للقيء عادة، أو الشاي الذي بلا اسم تجاريّ معروف، ويسبب خفقان القلب، وتَعطل الدورة الدموية، والذي يسميه الناس شاي الحشرات، ويباع بالكيلو والرطل، في الأماكن الشعبية.

كانت أبيا شهيةً جداً بحسب انطباع عبد القيوم، وانطباع قنديل، شاعر الأغنيات المرهف المخضرم، الذي نجح في كتابة قصائد عدة، من وحيها، كان يخبئها عن الآخرين، ويدلقها على سمعها فقط، وربما كثيرون غيرهما، لم يعرف أحدٌ انطباعهم بالتحديد.

كان أشهى ما فيها وجهها الناعم الخالي من نمش العمر، وآثار حب الشباب عدو الوجوه النضرة السخيف، وأشهى ما في وجهها عيناها المشعتان بنور الأمل برغم تشردها ولجوئها إلى وطنٍ بديل، واحتمال أن تصبح ضحيةً في أيّ وقت.

مذ حلّقت في منتجع الساحرات، أو موقف باصات السفر،

حلّقت بإشعاع، هبطت من باصٍ قادمٍ من حدود إريتريا، بلا زادٍ ولا حقائب ولا أفكارٍ معينة، ولكن بوجلٍ وحيرةٍ أخاذة.

تنشقها عبد القيوم الذي كان موجوداً في تلك اللحظة، كجزءٍ من روتينه اليومي، أن يوجد في المكان، وفي غيره من الأماكن قبل ذلك وبعده. شاهد هبوطها المتعثر من باص السفر، شمّ حيرتها الأولى وهي تتلفت، واستغرق تجواله المفضوح في وجهها وتفاصيلها، عدة دقائق، نهب فيها الوجه والعينين والشفتين، والصدر الممتلئ إيحاءً، وهبط بخيالٍ ليس نظيفاً تماماً، وليس متسخاً جداً، إلى ما يمكن أن يهبه الجسد المغزول، من متعةٍ فائقة. ثم اقترب منها.

كانت النظرة قد اصطادته، لكنه لم يعترف قطّ بأنه تعثّر بنظرةٍ صيادةٍ وسقط. ورافق عدمَ اعترافه ذلك، عدمُ اعترافاتٍ أخرى عديدة، ضنّ بها العشاق والعابرون وما يمكن أن يسمّوا عاطلي الشبق والمتعة.

كان عبد القيوم، صياداً أخرق لكلّ ما هو أخرق. وكان لصاً قديماً موثقاً بالصور الأمامية والجانبية والبصمات والمراقبة اليومية التي تفرض على أصحاب السوابق، أن يسجلوا حضورهم مرتين في اليوم، لدى أقرب مركز للشرطة إليهم، ومن أوائل الذين خُدشت هيبتهم وجُرّبت الكلاب البوليسية الألمانية المسماة "رن تن تن" في التعرّف إليهم وسط طوابير المشبوهين، عند دخولها الوطن منتصفَ السبعينيات، لأوّل مرة.

كان الذي يتعرف إليه الكلب البوليسي ويشمّه أو يعضّه أو

يلهو بتفاصيله وغثيانه، لا يسجن فقط، لكن تحمل المدينة كلها ملامحه، وتواصل ازدراءه، حتى بعد انتهاء عقوبته، وخروجه من السجن، ذلك أن عروض الكلاب لم تكن مغلقة بغرض محاصرة الجريمة فقط، بل كانت جزءاً من ترفيه المواطنين العاديين، تقام في الساحات العامة، والميادين الرياضية، وأحياناً على خشبة المسرح الوطني، ويحضرها جمهورٌ كبير، شبيهٌ بجمهور كرة القدم، وذلك الجمهور الذي يتوافر عادةً، في الحفلات الغنائية الموسمية، أو عند زيارة حيدر باخريف المعروف ب"شمشون أفريقيا" للمدينة، وعرضه لقواه الخارقة.

تلك الأيام، وبناءً على تداعيات تعرّف الكلاب وعضّها واستفزازها الرهيب للخصيتين ومؤخرات المشبوهين، قصُرت قامة الإجرام كثيراً حتى بلغت الربع. أمن المال العام على نفسه فتسكّع في الخزائن وبين أيدي الموظفين العموميين، من دون أن يعتدي على حرمته أحدٌ. حافظ الخاص على خصوصيته فبقيت في السرّ لا يقترب منها لصٌّ. أمنت ربات البيوت على غسيلهن الذي كان يسرق من الحبال، فنشرنه بلا خوف. أمنت العربات على إطاراتها والعيون على سوادها وكحلها، وأحلام الفتيات الصغيرات على براءتها، وفكّر كثيرٌ من الناس في سرقة مقتنياتهم الشخصية بأنفسهم وقضاء عدة أيام بين أسئلة المحققين، أو جدران السجون، حتى لا تنقرض مهنة السرقة، التي تعدّ واحدةً من أكثر المهن أصالةً لدى الشعوب.

امتلاء عبد القيوم بوسائل الارتباك، وتعدد مطاردات الشرطة وغيرها من فئات المجتمع المحافظة أو المتزمتة، لم يطفئ فورة الدم في عروقه، ولم يقمع رغبة الرجل في داخله، كان ينزف رغبته باستمرار، ينزفها في حيّ الصهاريج البعيد، في الطرف الجنوبي من المدينة، في بيت صاحبته مستورة، أو غيره من البيوت المظلمة المتواطئة مع الخطيئة في أيّ وقت. ينزفها أيضاً في عتمة الغرف المنتشرة هنا وهناك في مدينةٍ محشوةٍ بالتعدّد والهجرات، وما يمكن أن يهبه البحر من لآلئَ أو خيباتٍ.

اقترب من اللاجئة أبيا ومن حيرتها في ذلك اليوم الذي هبطت فيه المدينة، والتمّ حول رونقها الناس بجميع فئاتهم وأمزجتهم، وتنوّع رغباتهم، اقترب من وجهها حتى ألمّت بأنفاسه المتلاحقة كاملةً وعدّتها... كلّمها بلغة واضحة لكنها متعجلة، من دون أن يبدو مجرماً قديماً موثقاً بالصور والملاحقة، وعضته الكلاب الألمانية أثناء تجاربها الأولى في البلاد. اقتادها بلطفٍ طارئ، خالٍ من الغواية، إلى ظلٍّ بعيدٍ عن أعين رواد المكان، كان، في الواقع، مطعماً صغيراً، خارج موقف السفر، اختص بتوفير عصير الفواكه، والوجبات الخفيفة. جلب لها شطيرةً محشوةً بالمربى المخلوطة بجبن "سمسوم" المصنوع محلياً، وكوباً من عصير المانجو المخلوط بقشره حفاظاً على الفايتمينات كما يعتقد الكثيرون، واستعان بلاجئين قدامى من وطنها، يعرفهم وصادفهم في المكان، ليفهم مأساتها كاملةً، وبشتى الرموز، ويعرض خدماته.

النظرة اصطادته بلا شك، ولن يعترف أبداً بأنه كان ضحيةً لنظرةٍ صائدة.

ذلك اليوم تغير برنامجٌ يوميٌّ معروف الفقرات، دأب عبد القيوم على طاعته سنواتٍ طويلةً حين يكون خارج السجن.

تسلّم اللاجئة كأنها أرسلت إليه وحده، غير ملتفتٍ لاحتجاجات من شمّوا حيرتها الأولى مثله، وأرادوا استغلالها، في نزواتٍ مترفةٍ. أخذها بتعبها وغبار سفرها، وجمالها الأخاذ برغم البعثرة، إلى حيٍّ بعيدٍ، حيث امرأةٌ من أقاربه، لا يغشاها كثيراً، ويؤدي لها أحياناً خدماتٍ عاديةً جداً، كأن يهديها اكسسواراً رخيصاً، أو سلعةً تموينيةً شاحةً في المدينة، أو لوحاً من الثلج، في صيف المدينة القاتل. آوى اللاجئة عندها حتى يتدبر أمر إيوائها النهائي، وسعى إلى خفراء وسعاة حكوميين، يملكون دراية ما، في المجلس البلدي، من أجل أن يسعوا معه لمنحها أرضاً صغيرة، في موقف باصات السفر، وجلبوا له الموافقة بواسطة موظفين أعلى وذوي نفوذ، في خمسة أيامٍ فقط، وطاف معه عاملٌ في المساحة بيّن له موضع الأرض، ونوع النشاط الذي يلائمها.

كانت العقبة التي من المفترض أن تلغي ذلك اللهاث كله، هي أن أبيا لم تكن مواطنةً لتمنح أرضاً في الوطن، وفي جزءٍ حيويٍّ من ترابه. لم تكن لاجئةً قديمة، مستقرة كذلك، لتمنح كل ذلك الامتياز، لكن ما أراده حدث ولا يعرف كيف حدث، وما جعله يبدو ناقصاً أمام الخفراء والسعاة الذين ساعدوه، هو أنه لا يملك

مالاً، ليمنحهم منه، ولا يملك أصلاً شيئاً نافعاً، لينفعهم به. كل ما فعله أنه عانقهم طويلاً، وتقبلوا عناقه المرّ، ويعلمون جيداً أنه مجرد انفجارٍ موقّتٍ لعاطفته، وكانت ستنفجر لا محالة داخل أيّ صدر يبادر بمنحها فرصةً ما.

عبد القيوم لم يسأل عن مؤهلات أببا تسفاي الحياتية قطّ، ولا بدت له شبيهةً بأيّ وسيلة من وسائل الرزق التي قد تكون متاحةً لامرأة لاجئة.

لم تبد حائكةً للثياب مثلاً، ولا خادمةً في البيوت، مثلاً، ولا فتاة ليلٍ محتملة، ولا عاملة بدالة، ولا حتى بائعة شاي في موقفٍ مزدحم مثل هذا، فقط كان عليه اختيار مهنة لها بسرعة، واختار لها الشاي من دون أيّ تردد أو تدقيق أو استشارة لها، وربما في المستقبل، إن ظلّ لصيقاً بها، أن يجد لها مهنةً أكثر رقياً.

وبيدين لم تألفا الجهد العضلي، منذ أن خلقتا، ولا تفرقان كثيراً بين الرمل والحصى، والخشب، والجير والأسفلت، بنى لها ذلك الكشك الأزرق الأنيق لتنام فيه ليلاً، وتمارس نشاط بيع الشاي أمامه، في وقت العمل، الذي يبدأ مبكراً، وينتهي في أول الليل عادةً. لم يكن هذا ما كانت تحلم به في الواقع، لكنها تقبلته، وانتشت، وكانت كيكة المانجو الكبيرة التي استدانها عبد القيوم من أحد محلات بيع الحلويات، وقسمها إلى قطعٍ صغيرة، وقدمتها هي مع الشاي، في صبيحة افتتاح نشاطها، دليلاً على انتشاءٍ كان لا بدّ أن يحدث حتى لو لم يتطابق الحلم مع واقع الحال.

-٣-

كان من الواضح، منذ الأيام الأولى لقدومها إلى منتجع الساحرات، في هجرةٍ عشوائيةٍ بلا سندٍ، وبعدما استقرت في كشكها الأزرق الصغير، المميز، واعتُمدت بائعةَ شاي نضرةً، رائعة الجمال، ومختلفةً عن الشاي وصناعته لكنها تصنعه، أن عبد القيوم قد أعجب اللاجئة كثيراً.

ربما أعجبها اندفاعه لحمايتها من خطر بقائها امرأةً جميلة بلا صنعةٍ ولا سندٍ، في مدينة، يمكن بسهولةٍ شديدة أن يتحوّل فيها طائر الغراب المنبوذ شكلاً وسلوكاً، إلى دونجوان، وصورُ سيدات الشاشة السينمائية والفنانات العظيمات في أدوار الجدات والأمهات، بشيءٍ من الخيال السيئ إلى نزواتٍ، وذلك المجنون الذي يسمى نفسه الجنرال "ال ١٦"، ويلعب تنس الطاولة مع ظله في الشوارع، حاكماً فعلياً للبلاد، له قصرٌ وحراسٌ، وآراء في السياسة والاقتصاد، وقياسات خصر ملكة جمال العالم. ربما أعجبتها سمرته المتقنة بدرجةٍ بعيدة، والتي كانت من حيل الوسامة

المقدّرة كثيراً في بلدٍ ليس فيه نموذجٌ منافسٌ بحيلٍ أخرى، وربما، وهذا هو الأرجح، أن تكون نظراته الضئيلة، الملوثة عادةً بتوافه بلا حصر، قد صنفت في وقتٍ دقيق جداً، ونادر، نظراتٍ صائدةً، وأسقطتها.

لقد أعجبها بشدة، مَن لم يكن بديناً ولا نحيلاً، ولا يعرف لمَ كان عبدَ القيوم النحيل، وليس عبد القيوم الأبله، أو عبد القيوم الشقي، أو الذي بلا لقب محدد، مثل أشخاص كثيرين يعرفهم؟

منذ الأيام الأولى عرفت هجرته من الغرب حيث ولد في إحدى القبائل هناك، ربما قبيلة التنجر، ربما المساليط، ربما الزغاوة، وربما قبيلة أخرى، ذات أبعاد وظلال، أو مجرد قبيلة عادية، فلم يعد يذكر أو يهتم. وكان من المفترض أن يبقى غربياً، معجوناً برائحة الخريف ورائحة القحط في غيبة الخريف، هناك، لكنه لم يفعل.

كان منطفئاً حقيقة، وغالباً ما تتبعه آفات سوء الحظ، منذ ولد، لدرجة أن جداته طفن به على القبور والأضرحة، حيث الموتى الصالحون، يشدّون إزر الأحياء بكراماتهم، كما كان يعتقد، ولم يحدث أيّ تغيير.

سمعته يغني حين صحبته أوّل مرة للتنزه قرب شاطئ البحر. كان الليل جذاباً، وكانت السفن الملونة بأضوائها الكشافة، وإيحاءات رحلاتها البعيدة الغامضة، راسيةً هناك. كان العشاق يتنزهون بفرح، متماسكي الأيدي، وثمة موسيقى حالمةٌ تنبعث من

مكانٍ ما، ورسامٌ فاتن بفرشاة رشيقة، يرسم الليل والبحر وغموض السفن. كان يغني، وكان صوته مشبعاً بإحباطاتٍ شتى، وليس من المفترض أبداً أن يتحمل مسؤولية الغناء، وخصوصيته. هو نفسه لم يكن يودّ أن يصبح لامعاً أبداً، وإن لمع فمجرد عنوان موقّتٍ لحادثةٍ طارئة، أو موقف مخز، سيُنسى ويضيع بعد عدة أيام.

ذلك المساء ونادل كافتيريا "جنة عدن"، الصغيرة، الموجودة عند شاطئ البحر منذ زمن، يعبئ المائدة بطلبات عبد القيوم، من شطائر وعصير، وآيس كريم، ويكاد يعرف أنه لن يدفع، من مواقف سابقة، اندفعت اللاجئة في تقليب صفحاته أكثر، عرفت الكثير عن ماضيه الذي لم يكن مدفوناً ولا كان سوى ماضٍ عاديٍّ لرجلٍ هو هكذا وسيظل هكذا، حتى لو جاءه رغد العيش راكضاً. عرفت أنه بلا مقومات تضعه في الصف الأول ولا حتى الأخير للعشاق الذين قد تضطر فتاةٌ ما إلى الاختيار منهم، لكنها قد تختاره برغم ذلك.

وهي ترتشف أولى رشفات عصير الكوكتيل المصنوع من مانجو وبرتقال وموز لم ينضج جيداً، وثلج كثير، سألته عن بيته، أين يقع، وكيف يعيش هو؟ ولم تصدم كثيراً، حين عرفت أنه في الشارع، أيّ شارع يخطر على بالها في مدينة ثلث مساحتها شوارع. السوق كله شوارع، الأحياء كلها شوارع، والهروب من الشوارع يؤدي إلى شوارع. ومنذ جاء في هجرته من الغرب، وتذوق تعاسة أن يظلّ بلا مأوى ثابت، فضّل ما تذوقه، وظلّ هكذا،

وحين يعود إلى السجن في أيّ لحظة، تعود لتذوقه رائحة القضبان، وينحني لها.

طلبت منه أن يبحث عن مأوى لنفسه، من أجل مستقبل سيرته عندها، ومستقبله أيضاً إن طرأ طارئ على قلبها، وخفق له، فابتدأ يقلق لأول مرة لكنه فكر. سألته إن كان يقرأ ويكتب، فتذكر الأستاذ على الفور، ذلك الملتحي الطويل، صاحب الصوت القوي، الذي صادفه داخل السجن في إحدى المرات، ولا يعرف عنه شيئاً سوى أنه تاجر عملة، يقضي عقوبةً طويلة، ويهوى تعليم الناس القراءة والكتابة. وقد علمه بالفعل في عدة أشهر، وعلم غيره من المسجونين في تلك الفترة. طلبت منه أن يضيف ثلاثة أزرار إلى قميصِه الذي كان مفتوحاً حتى أسفل الصدر كاشفاً عن شعرٍ أسود غزير مثل غابة شوكٍ محروق، فأضافها بلا أيّ تردد، وأن يغسل قمصانه وسراويله ويكويها بانتظام، ولم يكن يملك قمصاناً وسراويل تكفي لتخصيص وقتٍ للغسيل والكي. طلبت منه أن يستعيد لها أسورة من الذهب عيار ٢١ الغالي، بنقشة "أجنحة الملائكة" العالمية المميزة، انتزعها واحدٌ من حرس الحدود من معصمها، حين فرّت من عرس الدم في إريتريا، وأرادت أن تعبر الحدود إلى وطنٍ قد يكون بديلاً.

كانت تمزح بلا شك في ذلك اليوم، وتمزح بطريقةٍ أخاذة، ستحك جلد الغريزة بشدة لدى عبد القيوم، وتشعله. وضحكت حتى شهق حلقها، وتعرّت أسنانها وضغطت غازات الأمعاء على

صدرها الضاحك الممتلئ عنفواناً.

كان عبد القيوم متفانياً في خدمة جمالها، أو لعل الجمال اخترع منه خادماً مطيعاً لن يعصى الأمر حتى لو كان مزحةً. لم يكن يحلم قطّ بامرأة تخصص نفسها، وكثيراً من وقت فتنتها، له وحده، بعيداً عن نساء الأزقة، وآفات حي الصهاريج المستهلكة، امرأة لها جمال وردة ورائحة وردة أخرى، وتستحق طقوساً خاصة للاحتفال بها.

ذلك اليوم غسل ضياعه، بضياعٍ أشد، فارقها عند الظهر، ليذهب إلى حي المرابيع، حيث يقيم عددٌ هائل من النازحين، تقاطروا من دول الجوار، في فترات مختلفة. ولأسباب مختلفة أيضاً. كان فيهم أوغنديون، وتشاديون، وإثيوبيون، لكن الغالبية كانوا إريتريين، يسيطرون على المكان، ولم يرد أن تِعرف أبنا طريقهم، حتى لا تضيع وتضيعه في وسط الرطانة، وصلة الدم، وفلسفة الهوية والوطن. عرف الكثير لأول مرة عن قسوة الحرب، ولهب النزوح الحارق، وسخرية الحياة التي تجعلك ممزقاً في بلد لا يستقبلك بأدنى حدٍّ من الحفاوة، ولا يطردك عن أرضه صراحة.

علمه اللاجئون المتكدّسون في غرف الخشب والصفيح، وداخل الحفر، وفوق تلال الأوساخ، وتحتها وبالقرب منها، بلا طعام منتظم، ولا رعاية، ولا ظلٍّ تتكئ تحته الأحلام، كيف يمسك جيداً بالمآسي التي تنزلق في الذهن، ويحاول عدم إفلاتها. أدخلوه أجواء الحرب والدم، وأخرجوه جريحاً في قلبه وأمعائه الشعورية، وأسمعوه عدة أغنيات تصلح في زعمهم لجعله متعاطفاً مع قضيتهم

إلى الأبد، وفي زعمه الخاص، حَبّاً من قمح العشق سيدأب على نثره في قلب صاحبته اللاجئة: أغنية للمغنية فرح بناوي، كلها حزن وأوجاع، وأيضاً أمل، أغنية لماديك شينو، تقول إن البطل الحقيقي لم يمت لأن الأبطال لا يموتون، والذي مات وهو يقاتل، كان ظلاً عاديا من ظلال البطل الحي المتعددة، واختتموا تعذيبهم أو تلقينهم الكثيف، بتلك الملحمة التي سموها أوتارا وأوتارا، وكانت زفيراً مرّاً، لكن بأصوات ملائكية.

كان مشحوناً جداً، لكنه لم يبك، واستغرب كيف أنه لم يبك، وخاماتُ حلْب البكاء المرّ جميعُها اصطفت لعناقه. كان ثمة ضرسٌ قديم محشوّ عدة مرات، ابتدأ ينبح في فمه، وقشعريرة شديدة الرقة زارته بسرعة ومضت... وذهب إلى حيّ الصهاريج البعيد، والليل يجمع ظلاله لينتج العتمة، والكلاب المحتالة تتأنق بأفخر النباح لبثّ القشعريرة في الدم. طرق عدّة أبواب، لم تكن أصلاً مغلقة لتطرق، حيّا ساكناتها من الضعيفات المستهلكات بودّ، وتلقى ضحكات لن تكون أبداً ضحكات قلوب صافية لنساء لم يعشن المتعة قطّ، برغم ممارستهن طقوسها على مدار الساعة.

كان فيهنّ إثيوبيات ربما كنّ نساءً حقيقياتٍ ذات يوم، وربما كنّ هكذا منذ خُلقن. فيهن بنات قبائل، وبناتٌ من الشوارع، وفيهنّ جدّاتٌ أعطتهن الفجيعة وجوه المفجوعات. عبد القيوم يعرف حيّ الصهاريج جيداً، ويعرف من أين تأتي خامات العرق الجيد والرديء، وأيضا خامات البائسات اللائي سيشكلن بؤراً للتعاسة

في أيّ وقت، وانتهى في بيت مستورة، أو الخالة كما يسمّونها في حي الصهاريج، وأحياء أخرى شبيهة.

كان بيتها يتوسط زقاقاً راقياً بعض الشيء، بجانب بيوت عددٍ من آثمي الحي، اشتُهروا بجانب ضخ البلوى وأفعال الشياطين، بالمروءة وإكرام الضيف، وإعداد موائد الإفطار في شهر رمضان، وفيهم اثنان كانا مقاتلين شرسين في عدة حروبٍ عقائدية نشأت داخل الوطن وخارجه، ولا يعرف أحدٌ لمَ اختل توازن الشخصية عندهما بهذه الطريقة.

لم يكن الرقيّ في الحي، يعني أبنيةً عالية مميزة بالصبغ الملوّن والأبواب والنوافذ الخشبية، أو بحيشان واسعة، فيها حدائق وطيور مغرّدة، وأحواضٌ لأسماك الزينة، ولكن مجرّد وجود الكهرباء معظم ساعات اليوم، كان رقياً، وجود الماء في المواسير، والملاءات على الأسرة، والمفارش على الطاولات، وجود الهاتف والتلفزيون، وحلة مولينكس، ومكواة كهربائية، وشمعة أو مجموعة شموع ملونة، وربما وجود شخص يمكنه أن يردد: بونجور، أورفوار، ثانك يو، هابي بيرث داي تو يو، ولا يحسّ بالغربة كثيراً حين يُذكر أمامه اسم برتولد بريخت.

حتى وقتٍ قريب، كان يوجد في أحد تلك البيوت، فتاةٌ شقراء بشفتين أرجوانيتين، وجسد متقن القياسات، كان اسمها جوزفين، وقيل من هنغاريا، جاءت من ضمن طاقم سفينة يونانية، لكنها بقيت محاطةً بالغرابة وشهوات الطبقة الراقية، واختفت

في أحد الأيام، تاركةً رسالةً لصاحب البيت تخبره فيها أن القمر قد استطال، والأرض ما عادت كروية، والزلزال قادم، وفسّرت الرسالة بواسطة الروحانيين الذين استشيروا، بأن ذلك يعني توبة قاسية، كأنّ صاحبتها لم تخطئ قطّ.

مستورة كانت نصف وطنية، ونصف أفريقية من غينيا التي عاش فيها والدها فترة كتاجر لسن الفيل وجلد النمر، وتزوّج أمها من هناك. لا يعرف أحدٌ كم عمرها، وحقيقةً لم يحاول أحد تخمينه. كانت عملت ماشطةً في محل تصفيف شعر نسائي معروف في المدينة، وظهرت كموديلٍ راقص في شريط غنائي بالأبيض والأسود، لأحد المغنين المعروفين، ولا يُعرف كيف انتصرت لنفسها أو لعلها انهزمت أمام تلك النفس، بتحوّلها إلى تاجرة عرق ومتعة، لكن من المؤكد أنها خاضت حرباً ما، ضدّ شيءٍ ما، أدّت إلى تلك النتيجة.

الآن لها أوزارها الخاصة، وفجورها الخاص، ونزواتها المعلنة والمخبأة. لها زبائنها الذين من طبقة أكبر كثيراً من حجم عبد القيوم وتشرده، لكن عبد القيوم ساندها في شباب مهنتها، وكانت تردّ جميلاً باستقباله.

أجلسته في حجرة معتمة، تضيئها لمبة محدودة السعة، كانت خمسةَ عشرَ أو عشرين واتاً على الأرجح، وكانت غرفتها الخاصة التي تدير منها العبث.

كانت مؤثثة جيداً، بسرير من خشبٍ غالٍ مزخرف، وخزانة

من خشبٍ أغلى بطول الحائط. كان يوجد راديو عتيق، من ماركة فيلبس، وتلفزيون هيتاشي، بحجم متوسط، مفتوح على القناة السعودية الأولى التي تظهر في المدينة، ويبث حديثاً دينياً عن القيم والأخلاق في المجتمعات. كان ثمة تليفون أسود كلاسيكي موصول إلى الحائط بسلك رفيع، وطاولات صغيرة، رصّت عليها قوارير العطر، وصناديق مناديل الورق، وصابون التواليت من أنواع مختلفة، لكنّ أفضل ما كان في تلك الغرفة، هو أنها لم تستخدم لغير النوم، وإدارة العبث قط.

منذ أكثر من شهرٍ لم يأت إلى هنا، هكذا ردّدت مستورة في نفسها، أو لعله أتى عدة مرات ونسيت هي في وسط انشغالها الكثيف، عموماً ستسأله:

- هل كنت في السجن؟

- لا

- أين كنت إذن؟

- كنت أبحث عن عمل.

- عن عمل؟

تردّد مستورة باندهاش...

- ايّ عمل؟...

تردّد باندهاش أكثر، وتعلم جيداً أن عبد القيوم لم يسع لعمل في حياته قطّ، أو على الأقل منذ عرفته، واكتفى بالسرقة والتنزه بصحبة الملل في منتجع الساحرات.

وحتى حين كان أمثاله من المشبوهين وروّاد السجون، وعشاق أجوائها الموحشة، يوظفون بواسطة الدولة كممثلين هزليين على مسارح الهواة، أو كحشود محشوة بالحماسة المقرفة، تهتف بغزارة في المواكب العامة، أو كحيطان بلا مشاعر، لتلقي الصفعات على الخدود من ضباط أمن عصبيين، لم يسع ليحصل على وظيفة... خمسةَ عشرَ عاماً منذ أن التقيا لأول مرة، كمريضين مختلفي الأعراض في المستشفى الكبير. وكانا يافعين... هو يافع كلصّ، وهي يافعة كزهرة كتب عليها الذبول مبكراً جداً، في تربة حيّ الصهاريج البعيد.

لم تكن مستورة في العادة، تسمح لذهنها بالانشغال بأشياء غيرها كثيراً، تقول في كل مناسبة إنها تدع الأحجار حيث وجدت ولا تحرّكها، لكنها الآن تحرّك أحجار عبد القيوم، في داخل تفكيرها:

ما الذي جدّ في حياته، وجعله متوازناً هكذا، يحكي بثقة، ويبحث عن عمل؟

فتّش عن المرأة،

يلسعها القول القديم بغتةً، فلا بدّ أن ثمة امرأةً وراء ما يحدث لذلك المتبطّل العريق.

نعم... هناك امرأة، لن تسأله عنها، وستذهب بنفسها في أول مناسبة إلى موقف باصات السفر لترى من هي، لكن هل هذا مهم؟

- هل هو مهم يا خالة؟

تسأل ذهنها وتردّ عليه.

إطلاقاً... إطلاقاً غير مهم، لن تذهب إذن، ولن يحظى هذا الولد المشبوه إلا بعدة كؤوسٍ من العرق، ثم تقصيه خارج عالمها المعتم عند الناس، والمضيء بشدة عندها.

- وهل عثرت على العمل؟

- حتى الآن لا، ما زلت أبحث.

ابتدأت الخالة مستورة تعبث بخاتمين كبيرين لامعين، من ذهبٍ حقيقي، في أحد أصابع يدها اليسرى، أحدهما تتوسطه فاروصة زرقاء، والآخر حمراء. رنّ الهاتف الكلاسيكي الأسود رنتين متحشرجتين، ثم صمت، ودخلت فتاة نحيلة، طويلة العنق، ومزعجة تفاصيل الوجه، وتضع حلقاً صغيراً على أذنيها، بغتةً، همست في أذن الخالة، وخرجت.

أخيراً رددت:

- طيب.

إنها "طيب" ذات السمعة السيئة في الحوارات، والتي يمكن أن تبتر أيّ حوار حتى قبل أن يبدأ، ويمكن بسهولة، أن تمسخ حواراً جاداً، فيه جهد كبير من حيث الخطابة وحركات الجسد، وتحوله إلى نكتة. استخدمتها مستورة في حوارها القصير مع عبد القيوم الذي بدا لها غير شيق بالمرة، وقد يطول، ويمتد ويعطل أعمالها الرائجة. بعد ساعة أو أقل سيزورها قائد كتيبة للمشاة مرابطة على مقربة من المدينة، ولا تريد لقائد يأتي بسرية تامة ويذهب بسرية أكثر، أن يواجَه بواحدٍ مثل عبد القيوم، إن لم يؤذه بالثرثرة

ومحاولات التقصّي وكشف الحال، آذاه برائحة جلده المتسخ.

أيضاً يوجد في إحدى غرف بيتها الخاصة جداً، في الوقت الحالي، اجتماع ثنائي بين تاجر معروف وفتاة في سن المراهقة، في أول تجربة لها، وتتوقع مستورة حدوث بعض التعقيدات.

وضعت أمام عبد القيوم، ربع زجاجة من عرقٍ قاسٍ، سريع التأثير، أخرجتها من الخزانة الكبيرة، وكأس صغيرة نظيفة من الزجاج الشفاف، وخرجت من الغرفة، تمشي بخيلاء. كانت تبدو لامعةً قليلاً في العتمة المحيطة، وتبدو فاتنةً بصورة قد تعجب الكثيرين، لو أنها فتحت هذا العالم حتى يدخله كثيرون.

صدح غناءٌ أتى من بعيد، تلته زغاريد عالية، وما يشبه زفةً للعرس، تتصاعد أصواتها وتخفت.

خرج عبد القيوم من بيت مستورة، ومن حي الصهاريج كله، بعد عدة كؤوس من العرق، سكراناً غير تقليدي بالمرة، لم يصب بزفارة الغثيان التي تصيب ثلاثة أرباع السكارى حول العالم. لم يحمرّ أنفه، أو تتمدّد شفتاه، أو تعاني خصيتاه من الضحالة، جراء احتباس مياهٍ كان من المفترض أن تراق في الحي ولم ترق... كان عادياً في مشيته، وكوّن عدة وجهات نظر في مواضيع متعددة، أهمها موضوع السكنى في مكان ما، والعمل إن عثر عليه، وإمكان أن يتزوج من أببا تسفاي، ذات يوم، ويهاجرا معاً هجرةً أفضل من هجرتها الحالية، إلى بلاد ربما تقدر الجمال لديها، وخفةَ اليد لديه. لا ينكر أنه تحرّش بأنوثتها اللعينة، مراتٍ عديدة، خاصةً في

لحظات انعدام الوعي الكامل، بسبب عرق رديء، لكن سرعان ما يهدأ ويعود انضباطه في حضرتها إلى الرسوخ. أبدا مهمة شاقة فعلاً، ولن تكون إذا أرادها بجديةٍ إلا زوجةً، في بيت خُصص لها وحدها، وسرّةً لن ينتبه إلى استدارتها سوى رجلٍ واحد، ولو كانت تودّ الطرق الأخرى للعيش في الوطن البديل، لكانت الآن داخل قصر.

كان يفكر بعمق، وعرف ربما لأول مرة أنّ ثمة بؤرةً في عقله، تتعاطى التفكير، وتحلل المعطيات، وبدت له المشاهد من حوله، بما فيها مشاهد نساءٍ ضاحكات، ولصٍّ يحاول سرقة رجل مسنّ، وطفلين يمسكان بأذني حمار ويحاولان جرّه، مشاهدَ ضبابيةً لا تعني شيئاً على الإطلاق.

فجأةً قفز طلبها بإحضار الأسورة المميزة، إلى ذهنه، وسيطر على بؤرة التفكير بالكامل. كانت تمزح بلا شك، لكنه لا يعرف، ولن يستطيع أن يعرف ما دام صدر منها أمر. وبلا أيّ تخطيطٍ مسبق عن كيفية السطو، والاجراءات الاحترازية التي دأب على اتخاذها منذ عرف تلك السكّة، وجد نفسه داخل دكانٍ للصاغة، به عدة نساء ينزّهن أبصارهنّ في حدائق الذهب المعروضة، والبائع الذي في منتصف العمر، يبدو مبتسماً، متعاوناً للغاية، وشاهده عبد القيوم يعطي إحدى النساء خاتماً على شكل وردة، لتجربه على مهلٍ من دون رقابة. ابتسم للبائع، أعطاه مواصفات الأسورة، وتوقع أن ينتبه إلى ثيابه، ورائحته الزفرة، وهيئته التي تشبه هيئة عامل نظافةٍ

استُدعي على عجلٍ لتنظيف قيءٍ في المكان.

البائع لم ينتبه، أو لم يهتم، نقب خزائنه الزجاجية وجاء بأسورة عيار ٢١، بنقشة أجنحة الملائكة الغالية. أمسكها عبد القيوم بين يديه، أمسكها بشدة، وفي لحظةٍ واحدة كان بعيداً جداً، وبعد ساعةٍ كانت الأسورة عند اللاجئة.

تأملتها وصرخت.

تأملتها وارتجفت، وتبرأت منها سريعاً. كانت تمزح لكن المعني بالجمال، والحارس لتوابله، وشطحاته، لن يفهم المزاح.

بعد ساعة أخرى كان عبد القيوم يخطو مترنحاً، يلقي بالأسورة أمام البائع المذهول، وعساكر الشرطة المتجمعين في المكان، ويصافح الضابط المسؤول عنهم، وهو يقول:

– معذرة جنابك، كنت أستعيرها لتراها خطيبتي.

والضابط يبتسم، ويشير إلى عساكره لينصرفوا.

- ٤ -

ذلك الصباح كانت ثمة مشكلةٌ طارئة، تواجه أبيا، بعدما انتقل المكان كله في الأيام الماضية، إلى نكهتها وحدها، ملغياً النكهات القديمة للأخريات، بلا رجعة.

اضطر عبد القيوم بمساعدة تاريخه القديم في السرقة، ومدفوعاً بتقديره الكبير للّاجئة، إلى استعارة أبسطة جديدة من المخمل وسعف النخيل، وأكواب إضافية من الزجاج السادة والمشجّر، وموقد آخر يعمل بالغاز، وأنبوب للغاز، من عدة أماكن في المدينة، لتلبية طلبات المسافرين والعابرين، وسائقي السفر ومساعديهم، وعاطلي المتعة الفقيرة، المقيمين بصفةٍ دائمة في المكان.

كان يسرق ويردد في نفسه: أستعير فقط. يغافل بائعةً غافية، وبائعاً مشغولاً بمغازلة أنثى، أو ربةَ بيت مهملة تترك الباب مفتوحاً، ليسرق ويردد في نفسه: أستعير فقط. وقال لأبيا وهو يسلمها الغنائم التي أحضرها على ظهر عربة كارو، استعارها أيضاً، ورأسه مرفوعة، ومتفرجو الساحة يحاصرونه بنظرات كلها عداء:

- استعرتها من أجل أن تتوسعي في الخدمة، وسأعيدها لاحقاً.

لكن من المؤكد أن تلك الغنائم التي كانت بلا قيمة مادية كبيرة، ولن تُحسبَ سرقاتٍ جيدةً إذا ما أراد أحد تصنيفها، لن تعود إلى أماكنها الأولى أبداً. من المؤكد أن الموقد سيتلف آجلاً أو عاجلاً، إما بالمطر أو التراب أو حتى بلا سبب، الأكواب الزجاجية ستتحطم بقصدٍ وبدون قصد، وأبسطة المخمل والسعف القديمة ستبدو أقدم، حدّ إلقائها في مقلب للقمامة، من دون تأنيبٍ للضمير. حتى اللاجئة نفسها، أببا تسفاي الزهرة، قد يأتي عليها زمنٌ وتمرض أو تحترق، أو يتسخ وجهها، أو ترتقي لحياةٍ أخرى، تاركة حياة الخفقان المرّ، وعبد القيوم وغيره من العشاق التافهين، مجرد علامات طريق عتيقة، مرّت بها ذات يوم وتجاوزتها.

لكن على الأقل، كانت سعيدة جداً في ذلك اليوم، وتحس بأنها تمددت بالفعل، وتحولت إلى سيدة أعمال ملهمة، ولو طلب عبد القيوم منها قبلة في تلك اللحظة، لنالها بلا تردد، ولو طلب أكثر، لنال أكثر.

كانت بائعات الشاي القديمات: حواء وسعيدة وسيدة الجيل، قد انتبهن، في لحظة كسادٍ عظيمة، إلى أنهن مهدداتٌ بالمرض النفسي بما فيه الاكتئابُ الحادّ، والوسواس القهري، والشيزوفرينيا، وربما بالموت القاسي الذي يضطر فيه الميت إلى استدانة شاهد مقبرته، ومصاريف عزائه من ميتٍ آخر، إذا ما ظلت تلك اللاجئة أببا أو "سخافة" كما أطلقن عليها في السر والعلن، تتمدد هكذا!

في المكان، بمساعدة جلفٍ صعلوك، يبدو أنه يعشقها.

نادين عبد القيوم ذات يوم، وكان يمرّ بالجوار، متأنقاً بثوب بلديّ رمادي اللون، وعمامةٍ بيضاء، لأول مرة منذ عرفنه.

حدثنه بمرارة عن معنى أن تعول عيالاً، ويصبح عيالك غير معالين بالمرّة: عن معنى أن تعود إلى البيت بلا لحم أو سمكٍ أو خضرواتٍ أو سلة نبق مرٍّ على أقلّ تقدير. كلّمنه عن أجر الباص الشعبي، من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا، عن أجر السقف فقط، إذا ما قرر الإنسان أن يستأجر سقفاً فقط، بلا أرضٍ ولا جدران، والدواء إن احتاج المرض المتوقع دائماً في السن المتقدمة، إلى دواء. وحدثته حواء بالتحديد عن عملية بتر للساق، مقرفة، وغير ناجحة تماماً، تعرض لها زوجها عامل البناء، نهاية الأسبوع الماضي، وما زال أجر أطبائه وممرضيه، همّاً يلقي بثقله كله على ظهر الأسرة.

كن يبثثنه الهموم بجدية شديدة، ويطلبن منه باقتصادٍ في اللغة والألفاظ، خوفاً من تسرب عبارات قبيحة ومؤذية إلى ألسنتهن، أن يرفع يده عن اللاجئة، يتركها تعيش حياة اللجوء العادية كاملة، من دون تدخلٍ منه، قبل أن تصل إلى حالة الاستقرار العظيمة، التي وفرها لها بلا جهدٍ منها، ومن أول يوم هبطت فيه المدينة. كن يُردنها، وبتحريضٍ من الغلّ المشتعل في الصدور، وكساد صنعتهنّ، أن تصبح مهانةً، ومغتصبة، وضحية حقيقية لجميع صانعي الضحايا في المدينة.

لقد تحدثن قبل ذلك مع عبد الباسط شجر، ومساعده الإثيوبي

ناهوم عرجا، وتحدثن مع عباس الموت، عامل الصحة المهم، ومع الدرويش الذي يشرف على العاطفة والنشاط الروحي في المكان، بمبخره وبخوره، ونشاطه وتمتماته، وثيابه المرقعة، وأيضاً بمبالغاته حين يردد دائماً بأنه وزير سابق، وكان متزوجاً من سيدة أعمال بدأت حياتها ممرضة، والحقيقة أن تنويهه ذلك لم يمرَّ مروراً عادياً، فهناك من بحث وتقصى عن وزير سابق، كان زوجاً لسيدة أعمال، كانت في الأصل ممرضة، وتحول إلى درويش، وجاءته النتيجة، أنّ معظم الوزراء في الحكومات المتعاقبة طوروا زوجاتهم من ربات للبيوت أو ممرضات، أو مدرّسات في رياض الأطفال، إلى سيدات أعمال، وتحولوا حين أقيلوا من المناصب، إلى دراويش.

الدرويش لم يكن معنياً بفتنة أبيا ولا حتى انتبه إلى عينيها العسليتين، وأنفها الملوكي، ونظراتها المصنفة خطرة، ولغتها المكسرة، وعنقها الذي تشتهي الزينة أن تحيطه، وخصرها المنحوت بمقاييس جودة عالية. وحين كان الآخرون يعلّمونها الغزل الوطني والضحكات الوطنية، وعباراتٍ ركيكةً من أسوأ ما أنتجته الشوارع، قد تحتاجها لممارسة الركاكة إن اقتضى الأمر، ويحلمون بها لزجةً في أحضانهم، يغسلونها بالنزف الحميم، وتزداد التصاقاً، كان هو يدور بمبخره في المكان، ووسط ضجيج الباصات، وصخب السائقين، ويصرخ: حي... قيوم... حي قيوم. لكنه، مع ذلك، اهتم بشايها، ونكهته التي ميّزها الجمال، لا

نوع المواد المستخدمة، وكان يجلس مع المهاجرين إليها، على بساط المخمل أمام الكشك الأزرق، حين يتعب من ضخّ البخور والتمتمات، ويحتاج شاياً أو قهوة.

عبد القيوم بدا عصبيا جداً ذلك اليوم، وهو يستمع إلى حكايات شظف العيش التي روتها النساء المسنات اليابسات، المأزومات حقيقةً، ولن يتخيل أو يحاول أن يتخيل أفضل منها، لنساءٍ يعشن بقربه سنواتٍ، وكان يقتسم معهنّ الهواء والمسكنة، ويشاركهن الضحك ونكات الفحش. هن فقيراتٌ، وهو أفقر منهن، وما دام الأمر كذلك، فليظل كذلك إلى الأبد.

هذه ليست فلسفةً خاصة، ولا نظرية يعتدّ بها في سوق النظريات الوجودية والفلسفية، إنها مجرد خطرفة، وحيلة أنتجها ذهنه، للإفلات من شرك مؤازرتهن، وترك اللاجئة بلا دعم، حتى تتمزق بمفردها، وترتق نفسها بعد ذلك.

لم يجلس على أيّ بساط من أبسطة السعف التي بدت متسخة ومهجورة، وقد تبكي بسخاء، لو امتلكت ميزة البكاء. لم يتذوق شايهنّ منذ جاءت أببا، لم يردَّ حتى بإيماءة من رأسه، ووسّع الخطى باتجاه الكشك الأزرق، حيث أببا، وسحرها، لكن ناهوم الإثيوبي المراهق الذي يعمل مساعداً لرئيس الموقف عبد الباسط شجر، يرتب له أشياءه، ويجهز إفطاره، وغداءه، ناداه:

- الرئيس يريدك يا ابن الفور.

هو من إقليم دارفور... نعم... هذه حقيقة. من إحدى قبائل

الإقليم التي نسي إن كانت عريقة أو عادية... نعم، إن كانت قاتلت الاستعمار الإنكليزي في بداية القرن ومنتصفه، أم بقيت خانعة، لا يعرف. لكن هذه الكنية، ليست لغة الإثيوبي، الذي من المؤكد، لا يعرف حتى أين تقع بلاد الفور ذات التاريخ القديم، وما معنى أن يكون عبد القيوم منحدراً منها. إنها لغة رئيسه، ويستلفها، وأحسّ بها عبد القيوم استفزازية إلى حدّ ما، وكاد أن يعتدي على ناهوم وتوقف في آخر لحظة.

– لماذا يريدني؟

سأل وأرسل بصره عبر المسافة الفاصلة بين مكان وقفته والكشك الخشبيّ الصغير الذي يتخذه عبد الباسط شجر مكتباً، في وسط المكان.

كان كشكاً عادياً من خشبٍ رخيص، غير مدهون بأيّ صبغة، ولن يقترب في أناقته من ذلك الأزرق الذي أنشأه هو، لبائعة الشاي الصبية، بالرغم من أن كشكه، كان شيّده بلا خبرة، وكشك رئيس الموقف من صنع السلطة، شيّده جيشٌ من النجارين والحدادين.

– لا أدري...

ردّ المساعد بلا مبالاة، وانطلق يمشي خلف امرأةٍ عجوزٍ، نحيفةٍ، ترتدي ثوباً رصاصياً، وغطاء رأس من قماش الثوب نفسه، كانتْ متجهة إلى أحد الباصات، سمعه عبد القيوم يصفر بلحن إثيوبي شهير، وسمعه يتغزل بلغة معروفة ومتداولة في الشوارع، في قوام مكسور ومنحن، لامرأة في سنّ جدته.

ابتسم، أدار وجهه واتجه إلى كشك الرئيس.

كان عبد الباسط شجر، أو الأشجار، كما اعتاد أن ينغم اسم عائلته في أحيانٍ كثيرة، جالساً على طاولته المتسخة عادةً، إما برماد عوادم الباصات وهي تمتلك المكان وتلوثه كيف شاءت، وإما بعاداته الشخصية في القرف، من استخدامه المكثف لزيت السمسم في الطعام، والأكل عليها بلا مفرش، وتقليم الأظفار من دون إزالتها تماما، لدرجة أنّ أحد أركان الطاولة، أصبح بالفعل تلًّا من الأظفار التي ابتدأ تقليمها منذ عام تقريبًا، ولا يزال مستمراً حتى الآن.

كان شجر في حوالي الستين، وكان في ما مضى مدرّساً مغموراً لستّ مواد في مدرسة ابتدائية، وأخاً غير شقيق لواحد من أشهر المنكوبين المحظوظين في التاريخ السياسي للبلاد. معتصم شجر الذي شارك بآرائه المحرِّضة، في أكثر من سبع محاولاتٍ انقلابية ضد الحكومات المنتخبة، أو المنقلبة على المنتخبة، منذ استقلال البلاد، ولم ينجح أيٌّ منها على الإطلاق، لدرجة أن السلطات اعتبرت اشتراكه في أيّ محاولة حدثت وقد تحدث في المستقبل، مجرد نهجٍ حياتيٍّ عادي، مثل رياضة المشي، أو شدّ البطن، أو ركوب الدّراجات، والتزلج على الجليد، أو استخدام اليد اليسرى في الكتابة والأكل، فلم تعد تعتقله، وتسجنه، وتهدده بالإعدام، أو تحقق معه على الإطلاق في السنوات الأخيرة. وحين مات بعد ذلك فجأة، عن أربعة وسبعين عاماً، وهو يحرّض بائع خضار

عاديّ على الثورة، وقذف رجال الشرطة بالطماطم والليمون، لفّ جثمانه بعلم البلاد، ودفن تماماً كما يدفن حاكمٌ نجح انقلابه وحكم.

حين تحولت ساحة المزاد إلى موقفٍ لباصات السفر، وكان رئيس الموقف القديم قد تقاعد بسبب المرض، أُعلن عن الوظيفة الشاغرة للرئيس، وتقدم إليها الآلاف من مختلف الأعمار، والمستويات التعليمية، لكن لم يلتفت إليهم أحدٌ كما يبدو، وأسرعوا إلى عبد الباسط شجر في مدرسته، لسببٍ غير معروف، ووضعوه فيها، ليملأها جيداً بعد ذلك.

عبد الباسط شجر لم يكن يسكن في الشارع، ولا متشرداً بسراويل وقمصان محدودة العدد، لا يستطيع أن يحدد لها يوماً للغسيل والكي، مثل عبد القيوم.

كان يقيم في بيتٍ جيد، يملكه في أحد الأحياء المتوسطة القريبة من وسط المدينة، كانت لديه عربة خاصة، ويستطيع أن يشتري رغيف الخبز طازجاً، واللحم، والدجاج، والسمك. يستطيع أن يتحرك بهدوءٍ إن أراد، وبعنفٍ إن أراد، ويستطيع أيضاً أن يتزوج في أيّ لحظة، بعدما ماتت زوجته، ومن أي امرأة يختارها قلبه أو جسده، أو تختارها نساء الجيران، لا فرق كبيراً سيغيّر شيئاً، لكن المشكلة أنه تعلق باللاجئة أبا أيضاً، ولم يحاول أدنى محاولة لإلغاء تعلقه بها. لم يحدث عشقه في اليوم الأول لقدومها، كما حدث مع عبد القيوم، ولا في الأيام التي تلت مباشرة، كما حدث لآخرين أقلّ

أهمية منه ومن عبد القيوم، وكان يشاهدها يومياً بالطبع، وهاجر إلى نكهتها أيضاً تاركاً بائعات الشاي المسنات أسوةً بغيره.

الذي حدث أنه وبعد ثلاثة أشهر من استقرارها في المكان، وفي أحد الصباحات، شاهدها في ثوبٍ أصفر مطعّم بالذهبي، يقبض على جسدها بالكامل، ارتدته لأول مرة، ولم يكُن هدية من أحد، بل من مالها الذي جنته من صنعتها. فاهتاج لدرجةٍ لم يستطع فيها أن يتحمل هياجه الذي كان يزداد ويستعر كلما ألقى نظرة على الأصفر المطعم بالذهبي، فغادر المكان سريعاً، وهو يعدو، ولم يعد مرة أخرى إلا حين جاء مساعده إلى المقهى الذي جلس عليه في السوق الكبير، ليخبره أن اللاجئة قد غيّرت ثوبها إلى واحدٍ أزرق اللون...

منذ ذلك التاريخ الذي لا ينسى، ابتدأ شجر يحسّ بامتنان عميق تجاه امرأة اكتشفت ضعفه وقوته في آنٍ معاً، جرّب ذلك اللون مراراً بلا نساء، وعلى موديلات بدائية من الخشب، والكرتون المضغوط، والطين، كان يصنعها بنفسه، أو يكلف أحداً بصنعها، وكانت نتائجه مذهلة، هي شهوة اللون بلا شك، وليست رغبته في اللاجئة بالتحديد، لكنه يريد اللاجئة لأنها أكسبت اللون المحرّض طاقة، وجسّدته في لحظة ما، يريدها ويعرف أن مجرماً مرموقاً يتسكع في مملكته هذه منذ إنشائها، أي منذ عشرة أعوام تقريباً، قد بنى لها في المكان كشكاً للرزق، لم يستطع هو أن يعترض عليه لأنه جاء من المجلس البلدي، السلطة الأعلى من سلطته،

وقطعاً بنى لها في قلبه عشرات المساكن، واللاجئة نفسها وبرغم تفاعلها الشخصي القليل مع الناس، مقيمين وعاملين، وعابرين، إلا أن أضراسها الخلفية، يمكن أن ترى بوضوح، خلال ضحكاتها التي تتكون في وجود عبد القيوم.

كان عبد الباسط شجر يعرف كل ذلك، ويستطيع أن يخمّن أكثر من ذلك، واستشار أصدقاء له هنا وفي الحي الذي يسكنه، فاتفقوا جميعاً على أن الأمر أزمة حقيقية، ستجرّ أزماتٍ أخرى. ومما قالوه يتذكر عبد الباسط شجر قولَ الدرويش بالذات، ذلك الذي أخافه، حين صرخ:

- ستون عاماً. انتهى الوقت... حيّ قيّوم... حي قيوم.

لحظتها فكر في قوله كثيراً، وخاف أن يكون الدرويش يعلن نهايته، وتذكّر بصعوبة وسط القلق والتوتر، وجفاف لسان الذاكرة، أنّ الدرويش ليس نظيفاً من قاذورات الدنيا، ليكون من الأصفياء الذين يملكون موهبة التحليق، وكشف المستقبل، ولو كان وزيراً سابقاً كما يدّعي، فلن يكون من الأصفياء في أيّ وقت.

الخلاصة أنه لا خلاصة ذات جدوى...

هو يريد اللاجئة وبسرعة، ولن يتركها لعبد القيوم اللص، يتلاعب بفقرها، ويفقرها أكثر...

كان عندها في ذلك الصباح بالذات، وقبل أن يحضر عبد القيوم من جولاته التي يبحث فيها عن العمل ولا يجده حتى الآن، بسبب سمعته كلصّ، لينفق باقي اليوم ملتصقاً بها، يحرس بيعها المشتعل،

ويساعدها في إنتاج حشمةٍ قد لا تكون تريدها أو تهتم بها، بدافع غيرته الشخصية، كأن يقف حاجزاً بين النظرات وصدرها الذي يشد النظرات، أو يمتحنها بأسئلة متعددة مملة، وصعبة للغاية، عن أسماء باعة التذاكر وسائقي الباصات ومساعديهم، ليعرف إن كانت ستتذكر أحداً منهم أم لا، أو يجرّ ثوبها إن انحسر قليلاً، وكشف شيئاً من الساقين، ليغطي ما انكشف.

وكان أكثر ما يصفعه ويحوّل قلبه إلى عكازة يودّ لو استخدمها في ضرب أحد ما، أن يرى نازحاً إريترياً أو إثيوبياً، مقيماً في المدينة أو قادماً من مكان آخر، عبر أحد الباصات، يتسكع بقربها، ويبادلها الرطانة.

كان يخشى، ويخشى برهبةٍ، أن تتأثر بجراح الوطن الأم، وتفرَّ إلى أحياء اللاجئين، خاصةً حيِّ المرابيع، لتتكدّس هناك في غرف الخشب والصفيح، وتحت تلال الأوساخ وفوقها، وبالقرب منها، وتنتهك بمئة حيلة، ولا يستطيع العثور عليها بعد ذلك.

كان محظوظاً في تلك الأيام، فلم يدخل السجن حتى بعدما سرق الموقد الغازي، والأكواب، وغيرها من أدوات توسع صنعة الشاي، لأنّ لا بلاغاً بوقوع سرقة قُيِّد في أيِّ قسم من أقسام شرطة المدينة، وبالتالي لا تهمة ستوجه للص. أيضاً كان قد غيّر شيئاً من عادة النوم، التي كانت في الشوارع، فصار في أحيان كثيرة، ينام قرب الكشك حيث تنام في الداخل، لكنه يبحث عن عمل في الوقت الحالي، وإن عثر على عمل، ستتفكك الرقابة بلا شك.

فكر مراراً في الزواج منها، لكنها قاسية، تريد زوجاً يملك حصة كبرى في حصص الحياة، وعبد القيوم نظيفٌ تماماً من حصص الحياة في الوقت الحالي.

في ذلك الصباح، وبعدما شرب عبد الباسط شجر قهوته التركية الخشنة، وشايه المحلّى بسكّر إضافي، برغم إصابته بمرض السكر منذ حوالي خمس سنوات، وألمّ بتفاصيل النكهة كاملة، وهو يجلس على البساط المخملي الجيد، أمام كشك أبيا، تحدث مع نفسه في تأمل شفيف جداً، وكان حواره في الواقع ليس الحوار الأصلي الذي ينبغي أن يكون.

كان عن الطبخ وصناعة الحلوى، وغسيل الملابس وكيّها، وكنس البيت وترتيبه، وإمكانية أن يأتي طفلٌ يملأ الحياة بهجةً، وكان قد تزوج من قبل، ولم يأت ذلك الطفل حتى رحلت زوجته، بينما الحوار الأصليّ، كان ينبغي أن يكون عن القميص الأصفر المطعم بالذهبي، محرض الشهوة، والترف الجنسي لعجوز في الستين، أو أكبر من الستين، فلم يكن للمواليد سجلات صارمة في زمنه.

في لحظةٍ ما، حين وصل بحواره إلى طريق بدت مفتوحةً لمزيدٍ من التفاعلات، والاحتمالات الجيدة والرديئة معاً، زحف على المخمل واقترب من اللاجئة، اقترب من أذنها بوقاحة حاول أن يخففها باصطناعه الخجل، وهمس مباشرة بلا مقدمات:

- سأهديك خاتماً ذهبياً شبيهاً بخاتم غلوريا ماقادودو أرملة

رئيس ساحل العاج السابق، وقلادةَ عنقٍ ذهبيةً على شكل جواد عربي أصيل، اشتريتها من الصائغ علي با علي، وأربع أساور مميزة في كل يد من باعلي أيضاً، ستسكنين بيتاً جيداً، موثّثاً بذوق وفن، في حيّ جيد، وتمتلكين حياةً بعيدة عن التشرد، ويمكننا أن نتزوج غداً إن أردت...

يسقط بيع الشاي... يسقط الضائع عبد القيوم...

أضاف وعيناه الصغيرتان اللتان لم تكبرا أبداً برغم ما دخل فيهما من سوءاتٍ عبر تلك السنين الطويلة، تلقيان ببهجة كبيرة، على عيني اللاجئة اللتين بدأتا تتسعان إما دهشةً أو ذهولاً أو تفاعلاً آخر غير معروف:

- فكّري جيداً يا حلوة... يا أغنية، وسأمر غداً في الصباح لمعرفة الجواب.

الذي لا يستطيع عبد الباسط شجر معرفته، أو التأكد منه، هو إن كانت اللاجئة استوعبت كل تلك اللغة أم لا، لأنّ نصفها كان قد خرج من اللسان بسرعةٍ كبيرة، ونصفها بتأثيرٍ من كتاب الإنشاء الذي كان يدرّسه للابتدائيين، في بدايات حياته، وبالتالي فإنّ ردَّها على طرحه في الصباح، كان مهدداً بأن لا يحدث، أيضاً إن كان ثمة ارتجاجٌ قد حدث داخل نفسها حين هتف بسقوط عبد القيوم، والشيء الذي لم يعرفه، هو أنه لم يكن الأول في تلك الأيام، الذي يكشف أوراق عشقه للّاجئة بكل أريحية، وإن اختلف الطرح بالطبع.

لقد سبقه عامل الصحة عباس سالم، الملقب بالموت وكان قد جاهد طوال الأشهر الثلاثة الماضية، أي منذ أن قدمت أبيا، أن يخفي شيئين، حتى لا تسمع بهما اللاجئة، وتصاب بالهلع: أنه مات وعاد للحياة مرة أخرى، وسمي الموت، وتلك الإشاعة الكبيرة جداً، الموجودة في المكان منذ سنوات، وتؤكد بقوة، أنه متزوج في السرّ، من عنز.

عباس الموت لا يحب الأناقة، أو بالأصح، لا يعرفها، ومهنته كعامل في الصحة، تفرض عليه الاتساخ الدائم بمواد رشّ الحشرات، وحساسية الصدر والجيوب الأنفية. وبالرغم من أنه من عمال الحكومة، ولديه وظيفة تبدأ بزمن محدد، وتنتهي عند زمن محدد، إلا أن وجوده في المكان، يفوق وجوده في أيّ مكان اخر، وحتى حين يذهب للنوم في بيته الذي لا يعرف مكانه أحد، يخيل للناس أنه موجود، ويتسكع حاملاً أدوات رش الحشرات، وعينين تحبان نميمة النظر بجنون.

قال مباشرةً بلا أيّ ابتسامة، بعدما حكّ أنفه، وتلفّت في حذر، خوفاً من قدوم عبد القيوم فجأةً:

- أبيا... إن كنت غير مخطوبة، أو مرتبطة بعبد القيوم، أريد الزواج منك فوراً، سنفرّ من هنا إلى مكانٍ آخر، أكثر جمالاً، وسنعيش شهر عسل دائماً، هل تقبلين؟... أعني... هل؟

ثم فرّ سريعاً نحو مستعمرة ذباب أمام مقلب زبالة، وراشّ المبيد البخاخ في يده. لم يسمع ردّها عن سؤال خطبتها، وارتباطها، وإن

كانت تقبل به، إذا لم تكن مخطوبة، والحقيقة أنها لم ترد، لكن ربما ابتسمت أو ضحكت أو اغتاظت. أو لم تبد أيّ تفاعل.

كان عباس الموت كما تعرف، جزءاً من منتجع الساحرات، جزءاً من فوران المكان وجزءاً من خموده أيضاً، لكنه لم يصل بعد حتى إلى العتبة الأولى على الدرج الطويل الذي يقود إلى قلبها. كان من المؤكد أنها سمعت بموته الذي حدث منذ أربعةَ عشرَ عاماً، وكان يومها في العشرين، وبعودته الى الحياة بعد الموت بساعتين، وربما، وهذا احتمالٌ غير مؤكد، أنها سمعت بعشقه لإناث الماعز، وإيواء الكثير منها في بيته، ذلك أن الواشين، وناقلي الأخبار مهما تجرأوا، لا يستطيعون مواجهة امرأة حتى لو كانت مسنة وجدّة، بإشاعةٍ فاحشةٍ مثل هذه.

شاعر الأغنيات قنديل الذي يأتي من حينٍ لآخر، وليس زبوناً دائماً للمكان، وبعدما استطاع العثور على ركنٍ هادئ وملهم أمام البحر، وكتابة أغنية خفيفة، ومزعجة في أوصاف أبا، جاء أيضاً، وأسمعها الأغنية منغمة بصوت لا يصلح لتنغيم الأغنيات، وتأكد أنها فهمت كلّ حرفٍ فيها، ولم يطلب الكثير، فقط أن تلهمه بنظرة أو ابتسامة، كلما شاهدته بالجوار، وحتى لو أسعدها الحظ، وتزوجت، وانتقلت لمكان أكثر ملاءمة لامرأة مثلها، فقط فلتخبره، وسيدفع أجرة المواصلات لأيّ مكانٍ توجد فيه، من أجل الإلهام، والإلهام فقط.

قنديل لم يكن خائفاً من عبد القيوم، ولا من غيره، وكعادة شعراء

الأغنيات في تلك الفترة، كان يملك "أنا" متضخمة، وجبارة، تزدري مئة واحدٍ على شاكلة عبد القيوم.

أببا لم تكن تتحدث كثيراً، ولم تكن في الغالب تجيد الجدل والحوارات التي بها نهاياتٌ تصلح بداياتٍ لحواراتٍ أطول، لذلك لم تسأله شيئاً، ولم تخبره بشيء. وإن كان ما فهمته من الأغنية التي تبالغ في وصفها، قد أسعدها كثيراً. كانت امرأةً في النهاية.

أيضاً، وتلك كانت ستكون مفاجأة مُرّة لعبد الباسط شجر، قد تحوله إلى قاتلٍ أو مجنون، ذلك أنّ الإثيوبي المراهق، مساعده النحيل ناهوم عرجا، طلب الزواج من أببا ذات يوم.

ناهوم عرجا، أيضاً له عالمه الخاص، بغض النظر إن كان سوياً أو مشوّهاً، ثرياً بتفاصيله أو فقيراً بلا أيّ مقومات، وكونه زفِر الرائحة إلى درجة بعيدة، وولد من أسرة إثيوبية الأصل استوطنت في البلاد منذ زمن، ومن فئة المراهقين الذين لا يلفتون النظر عادةً، ومضطهداً طوال اليوم من رئيسه شجر، ومن آخرين يظنون أنّ لديهم صلاحية اضطهاد المراهقين، وعاكفاً بتجرد ونكران ذات على مغازلة كبيرات السن، نوعاً من عمل الخير، ذلك لا ينفي أنه لا يحلم، ولا يستلذ بأحلام كبيرةٍ وارفةٍ، فيها لاجئاتٌ بديعات الحسن، وقد يكون فيها ممثلات سينما على شاكلة الهندية أنوشكا شارما، والفرنسية تيفاني دافيوت... وعارضات أزياء أيضاً، ليس أقلّ وهجاً ولعنة من اليهودية سونيا يواحيم. والكازخستانية أنوشا زوزوف. وتأتيه أيامٌ تنقلب فيها لذته إلى حنظل، ذلك حين تتشوه

أحلام يقظته برائحة الدم، فيغتصب داخلها ويقتل. ويتمشى في منتجع الساحرات مضطرب الخطوات، ووجهه في الأرض.
وحدث مرتين أن توحشت اللذة بأكثر من التخيل، وخنق ناهوم فتاة ليل في حي الصهاريج، منحته يومه بسخاء، لكنه أفلتها في اللحظات الأخيرة وبكى بغزارة، وأسهب كثيراً في إيذاء طفلةٍ من أطفال حيِّه، حين اغتصب وشوّه، وأشعل النار، وفرّ من دون أن يراه أحد، وكان في المستشفى، مع الناس، يسبّ الوحش المجنون معهم، ويعارك الأطباء البطيئين، معهم... لكنه ما لبث أن نسي، وعاد إلى حياته، حين تأكد أن الطفلة شبه المعاقة، لم تعرفه.

كان يقيم مع أهله في حيّ طروادة الفقير، جنوب المدينة، قريباً من أحياء مثل الصهاريج والمرابيع، ويأتي صباح كل يوم، راكباً دراجة، أو متعلقاً في باص، للعمل مساعداً لعبد الباسط شجر. كان واعياً أنّ طروادة ليس حياً جيداً، ولا يوجد أملٌ أن يصير جيداً بمرور الوقت، لكن وبإمكانياته البسيطة تلك، لم يمنع ناهوم من تخيّل نفسه نجماً في كثير من المناسبات.

كان ناهوم عرجا في نظر أمه، أعظم شابٍّ أنجبته الأرحام، وفي نظر أبيه، لا يقل رجولة عن أي فردٍ قاتل وانتصر في كتائب كاجيو الإثيوبية التاريخية، وفي عرف العمات والخالات: ما أوسمَ هذا الولد.

لم يبد ناهوم متردداً أو مفزوعاً، وهو يزحف على بساط أببا، يضرها برائحته البشعة، ويصارحها بهواه العنيف، ورغبته في

الزواج. وأجابته أبيا بكل شهامةٍ ونبلٍ، وهي تغطي أنفها، تلك الإجابة التقليدية التي اتضح أنها موجودةٌ أيضاً في بلادها، وربما في كل بلاد العالم التي فيها رجال يريدون الزواج من فتيات:

– أنت إنسانٌ جيّد يا ناهوم، وألفٌ مَن تتمناك، لكنني لا أفكر في الزواج في الوقت الحالي.

ابتسم المراهق ومضى مرفوعَ الرأس، ذلك أن كذبة "ألف من تتمناك" هذه كانت، برغم قدمها وأنها من الكذبات الكلاسيكية التي من المفترض أن تكون انهزمت بتطور الزمن، لا تزال تحتفظ بسمعة مشرفة حتى الآن، وتُصدق بجدارة، عند كلّ من تعرضوا لسماعها، لكن ثمة حركة غريبة في رأسه المرفوعة، كانت تنذر بخطر ما، لم تنتبه إليه أبيا، ولا أحد آخر ممن شهدوا انهزامه.

ولو جلس عبد الباسط شجر أو غيره في محاولة لإحصاء عدد الذين لفتت أبيا قلوبهم، وتمنوها فاكهة يومية على موائد حياتهم، فلن يستطيع، ذلك أن منتجع الساحرات، أو موقف باصات السفر لم يكن المكان الأكثر ضجيجاً في المدينة فقط، بل أكثر الأماكن المتوجة باحتمالات أن يحدث فيها كلّ شيء، بما في ذلك أن تتعطل حركة السفر كلها من أجل خاطر امرأة كانت في لحظة هيام أو مخاض، وأن يشاهد ميت مدفون في تربة بعيدة، ممتلئاً بالحياة، ويتسكع في المكان. وبالفعل ذكر كثيرون في هذا الصدد، أنهم طالما شاهدوا سنكاري، وكان ولداً ضريراً، ومتسولاً، سقط تحت إحدى الباصات منذ سبع سنوات، ومات ودفن بوصفه مجهولاً،

يتمشى بعصاه في المكان، ويسأل الناس: هل ما زالت خديجة تغني؟ هل ما زالت ترتدي الأحمر؟ وما زالت تردد: يا وجع القلب، يا وجعي؟

وبالتدقيق في تلك الأسئلة من البعض، والطواف بها في الأحياء التي يشتبه أن سنكاري كان من إحداها، تمّ العثور بالفعل على واحدة اسمها خديجة، كانت تلبس الأحمر، وتغني: يا وجع القلب... يا وجعي.

— ٥ —

لم يبد عبد الباسط شجر مهتماً بالرد على تحيةِ عبد القيوم التي ألقاها عليه بتعجلٍ ونفاد صبر، وبصوت كبير، بالرغم من أنه هو الذي استدعاه.

لم يرفع عينيه شبراً عن الأوراق الكثيرة المكدسة أمامه، وتوحي حركة القلم في يده، أماماً وخلفاً وفي دائرة، أنه يوقعها، ولم يكن في الحقيقة يوقع أوراقاً، ولكن يرسم حمامةً ميتة، تدوسها قدمٌ فظة.

كانت هذه عادته منذ زمن بعيد، وقبل أن يمتهن التدريس حتى، أن يرسم الحمام الميت، والفئران الميتة والصراصير الموشكة على الموت، كلما توتر، أو أراد بأنانيةٍ مفرطة، أن يبدو وغداً، محقوناً بالعقد كلها، وفي هذه اللحظة بالذات كان وغداً فعلاً، لأنه يكاد يعرف بالضبط في أيّ ركنٍ من أركان عنبر الحجز الاحتياطي القذر، المكتظ بالإجرام والنيكوتين، سيرقد عبد القيوم لياليه القادمة، ابتداءً من اليوم، وبأيّ عربة بيك أب من عربات أجهزة

الأمن الممزقة من خشونة الاستخدام، سيتم نقله، وأيّ ضابطٍ من الضباط العصبيين، سيتولى مهمة إرهابه، وخلخلة أسنانه، وحشو خده بالورم.

وكي يكون منصفاً في الشر، وليس ظالماً، فقد جهّز عدة استفزازات مختلفة، قد يستخدم بعضها أو يستخدمها كلها إن اقتضى الأمر، ويتمنى في أعماق نفسه أن يعتبرها عبد القيوم استفزازاتٍ جادةً، ويهتاج، ويرتكب جريمة صغرى تدخله السجن، وتبعده عن المكان، حتى ينتهيَ هو من استيلائه على اللاجئة، بطريقةٍ شرعية وواضحة، بالرغم من أنها أهملت الردّ عليه، حين صارحها برغبته منذ مدة. وحين يعود البطل المقهور بعد ذلك، مصاباً بالجرب والاكتئاب، لن يستطيع أن يفعل شيئاً، وقد لا يعود مرةً أخرى.

عبد الباسط شجر لم يفكر ولو لحظةً واحدة في احتمال أنّ جريمة غريمه، قد تكون جريمةً كبرى، كأن يقتله عبد القيوم مثلاً، كأن يشقّ بطنه ويتسلى بتضفير مصارينه، كأن يجره من أذنيه العريضتين ويلقيه في سكة باص متهيج من باصات موقفه، ذلك أنّ لا تاريخ قديماً أو حديثاً ذكر أنه قاتل محتمل، وتلك السيرة الذاتية المشحونة بمضامينَ متنوعةٍ وواضحة المعاني، والمستلة من أيام الطفولة، والصبا المبكر في إقليم دارفور الغربي، قبل الهجرة إلى الساحل، ويعرفها الجميع تقريباً بلا استثناء، ذكرت في صفحاتٍ كثيرة، سرقاتِه وتكرارَ سرقاته، وتكرارَ تكرارَ سرقاته بلا نهاية،

ولا شيء عنيفاً سوى قرصه خدّ فتاةٍ اسمها خضراء، كان يحبها في ذلك الزمان بعمق، ولم تنتبه لحبه قط، فاضطر إلى أن يقرصها في خدها، حتى تنتبه.

وقرصه خدَّ فتاةٍ أخرى اسمها الرابحة، أحبها بسطحية شديدة، وأحبته بعمقٍ، فاضطر إلى أن يقرصها في خدها حتى تصحوَ من لوعة الحب. وقرصه خدَّ فتاةٍ ثالثةٍ اسمها لمة، لم يكن يحبها ولم تكن تحبه، وقرصها في خدها، لا لشيءٍ إلا لأنه أراد أن يقرصها في خدها. وأيضا إيهامه لجدي حديث الولادة، بأن ناراً حمراءَ أوقدها أمامه، هي ثدي أمه، وشيئاً آخرَ كان في الغالب افتراءً وليس له أساسٌ من الصحة، وهو أنه الشخص الذي كسر صفَّ الأسنان الأمامية لعضو البرلمان عثمان أبكم، المنحدر من نفس منطقته، في عراكٍ نشأ بينهما أيام المراهقة.

كان عبد القيوم، وبالرغم من معرفته العميقة بالهرجلة[1] التي حدثت بعد قدوم اللاجئة إلى المكان، وتبنيه مساعدتها، إلا أنه لم يكن يعرف بأنَّ موقف السفر يغلي باستمرار، منذ اليوم الثالث أو الرابع لقدوم اللاجئة. وأن هذا يعمل ضدّ ذاك، وذاك يعمل ضدّ هذا، وهذان أو هاتان، معاً ضدّ أولئك، وأولئك ضدّ هؤلاء، وهكذا. لكن باستثناء ما بدا له غلاً واضحا لدى بائعات الشاي المتضررات حواء وسعيدة، وسيدة الجيل، لم يمسك بأيّ ضغينة أخرى.

---

١ أي الفوضى

كان المكان بكل عمقه وسطحيته، وتفكير أدمغته أو خمودها، إخوة أعداء، إما في حب أبيا ومحاولات إخضاعها جسدياً وروحياً لذلك الحب، وإما في كرهها، ومحاولات إنهاء صنعتها كبائعةٍ للشاي، مميزةٍ وذاتِ رونقٍ، جاءت فجأة واستولت على الرزق كله.

في ما يختص بعبد القيوم وحده، وفي سبيل تدميره، فقد ألقى عبد الباسط شجر في تلك اللحظة، بأولى استفزازاته وأعنفها على الإطلاق وعبد القيوم يقف أمامه متعجلاً ونافد الصبر:

- سمعت أنك استلفت نقوداً واستأجرت بها بيتاً في حي الصهاريج قريباً من بيت الخالة مستورة، ستضع فيه اللاجئة أبيا، وتتاجر بها كأيّ قواد قذر... كم حددت أجراً لها؟ أخبرني.

قال شجر وابتسم، كاشفاً عن أسنانٍ نصفها أصفر ونصفها أنصافُ أو أرباعُ أسنان، قضى على وسامتها تقدّم العمر، وعاداتٌ أخرى مثل سفِّ التنباك، ومصِّ آيس كريم الفراولة المشبع بالسكر.

كانت يده اليمنى في جيب سرواله، تمسك بأداةٍ حادةٍ، وجاهزةً لأيّ طارئ، ويحس بأنه انتصر في استفزازٍ ذكيٍ، ولن يكون ردُّ الفعل أقلَّ من صفعةٍ من عبد القيوم على خده، وتمزيق قميصه، أو سبٍّ بذيءٍ يطال أباه وأمه، وكل ذلك سيصنف لدى السلطة اعتداءً على موظفٍ رسمي أثناء تأدية واجبه، وسيدخل المعتدي بموجبه السجن، ولن يعرف أحدٌ على الإطلاق، ماذا اقترف الموظف الرسمي قبل الاعتداء عليه، وحتى لو عرف أحدٌ، فليست مشكلة.

كانت مفاجأةً لعبد الباسط شجر، مفاجأةً حقيقية، أنّ عبد القيوم لم يُبد انفعالاً من أي نوع، لا انفراج شفتين، لا تقطيبة حاجب، ولا يداً ارتفعت لتهوي على شيء ما وتحطمه، أو قدماً تحركت مشحونة بالسعرات الحرارية، والأدرنالين، لتركل شيئاً. وقف قليلاً يتأمل المكان، كأنه رسام يختار زاوية موحية لرسمها، ثم مدّ يده إلى كوبٍ من الشاي الأحمر البارد، موضوعٍ أمام شجر، دلقه دفعة واحدة في حلقه وانصرف ببطءٍ، وبخطواتٍ بدت منغمة، وذات وقع.

ذلك الموقف المخزي للاستفزازات المجّهزة بإتقان، وانهزام واحدٍ من أقواها أمام عبد القيوم، أربك حسابات عبد الباسط شجر، رئيس موقف باصات السفر، بجدارة. دحرجه من نشوة انتصارٍ مزعجة، إلى قسوة انهزام، أكثرَ إزعاجاً، وبدلاً من معرفته بمستقبل عبد القيوم الذي كان من المفترض أن يبدأ من عنده تلك الساعة، احتالت عليه عشرات الكوابيس الحية، عن مستقبله هو، لو قرر عبد القيوم أن يغيّر نشاطه، بنفس الطريقة التي غيّر بها مشاعره، ويتحوّل إلى قاتل. ساعتها لن يكون ثمة مجالٌ لتفادي الموت بأيّ طريقة.

قطعاً خرج من عنده الآن إلى أبا ليحرس يومها كالعادة، يجرجر فستناها، ويقف حائلاً بين تفاصيلها ومحاولات نهب تفاصيلها من رواد أبسطتها وشايها. وقطعاً ستخبره طائعةً برغبة شجر فيها، وسيرتبط عنده حادثان بسرعةٍ كبيرة، وبلا أيّ احتياج إلى الذكاء:

طلب الزواج من امرأة، ومحاولة التخلص من عاشقها.

لكن هل عبد القيوم عاشقها فعلاً؟ هل يحبها؟ وهل تبادله الحب؟

قراءاتُ موقف السفر، بما فيها قراءاتُ من ظُلموا بظهورها الفجائي واستقرارها، مثلُ بائعات الشاي العتيقات، وقراءاتُ من لم يتضرّروا، بل سعدوا بظهورها، بيّنت مشهد الرجل الشهم الذي يرعى امرأةً ضعيفة، اللص الذي ينهبِ ليهب الاستقرار لمتشرّدة، وظهر في المشهد العام، وبحذرٍ شديدٍ، تغيّرٌ ليس قليلاً، في ملابس عبد القيوم، وسلوكه. لقد أصبح أكثر وعياً بجودة اللبس، وتنوعه، وعرف الكثيرون أنه ابتدأ يستحمّ، ولم يكن يهتم بذلك، أيضاً لم يعد ينام في الشارع كما كان يحدث منذ عرفوه، إما ينام عند الكشك الأزرق، أو في غرفة صغيرة، قريباً من المكان، صحبة أحد معارفه. كذلك اتضح بأن عبد القيوم قد طرق أبواب رزق كثيرةً، لم ينفتح منها بابٌ حتى الآنِ بسبب كثافة سوابقه، لكن من المؤكد أن باباً ما قد تخلخل، وسيُفتح ذات يوم. وذكر عباس الموت، عامل الصحة، أنّ هناك من يتوسط له لدى البلدية، ليعمل في رشّ الجراد الصحراوي، وهي وظيفة بلا أعباء، وتمارس من أيّ ركن، لأنّ لا جراد في المدينة، منذ أنشئت، وقد مات شاغل تلك الوظيفة مؤخراً، ومن المتوقع أن يعيَّن عبد القيوم فيها إن نجحت الوساطة.

هل هذا التغيير هو الحب؟

لم يشأ عبد الباسط شجر أن يجيب عن سؤالٍ طرحه على نفسه،

في الواقع خاف من الإجابة. صرخ:

- ناهوم... ناهوم الإثيوبي.

لكن ما حدث، وأيضاً خلافاً لما كان يرسمه شجر في ذهنه ويفزع منه، أنّ عبد القيوم لم يغيّر نشاط مشاعره، ويصبح قاتلاً على الأقل في ذلك اليوم وربما في أيام أخرى ستأتي. كان طعم الشاي البارد الذي التقطه من أمام غريمه لا يزال في حلقه، حين خرج متجهاً إلى البؤرة التي يتجمع عندها المزاج السالب والموجب معاً، لمنتجع الساحرات. كان في ذلك اليوم بالذات، يحمل مفاجأةً قد تعتبر سارةً جداً إذا ما أراد المهتمون اعتبارها كذلك. وفي الوقت نفسه قاتلةً جداً للذين يريدون اعتبارها قاتلة جداً، فقد وافقت إدارة البلدية، بسهولةٍ شديدة، وبلا أيّ اعتبارٍ لسمعته الكئيبة، وعدم جدارته، على تعيينه عاملاً لمكافحة الجراد، يتلقى راتباً شهرياً لقاء عدم مكافحته للجراد الذي لم يشاهَد قطّ في المدينة ولا بالقرب منها.

-٦-

قبل ذلك بدقائقَ قليلةٍ، وغير بعيدٍ عن مكتب عبد الباسط شجر، حيث كانت تجري مراسم استفزاز عبد القيوم، ومحاولات تلقينه القسوة، ليدخل السجن بقدميه، مفسحاً المجال لنزوات غيره أن تتسكع، كانت أبيا تسفاي، منهمكةً في أحلام كثيرة، دأبت على الانهماك فيها مذ كانت مواطنة في وطنها، تملك بطاقةً شخصية، ومشاعرَ سالبةً وموجبةً، وحصةً في التموين الغذائي، وشهادةً من معهد اسمه معهد ميكائيل عفرتو، للتطريز والتنسيق، وفنون الديكور، تثبت أنها متخصصة في تنسيق الحدائق. وكانت حقيقةً قد درست ذلك الفن عن رغبةٍ أكيدة، وامتلكت يقيناً ربما كان متجاوزاً، حين أكدت لنفسها بأنها ستنسق حديقة البيت الأبيض في واشنطن، حيث يقيم الرئيس الأميركي المنتخب دائماً، ذات يوم.

لم تكن تنتبه إلى أنها في عالم ثالثٍ، إن تطور ذات يوم، فسيكون عالماً ثالثاً متطوراً، لا أقل ولا أكثر، وعلى الأرجح سيكون هكذا ثالثاً فقط إلى الأبد. لم تكن تنتبه إلى أن أميركا بعيدةٌ جداً، وحتى

قباطنة الطائرات النفاثة، يشكون من الزغطة، وأوجاع أسفل الظهر، وآلام الطحال والبواسير، إذا ما اضطروا لقيادة الرحلات إليها من بلد في أفريقيا أو آسيا، ثم كيف يحقق حالم حلمه، ولا توجد أيّ إشارة بدءٍ معروفة، لتتبعها.

نعم، لا توجد إشارة، لكنها ستوجد ذات يوم. ستوجد... ستوجد.

ثم لتتمزق الأحلام كلها، أو لعلها لا تتمزق، فقط تختبئ بكامل نسيجها في قاع الذهن، حتى يحين وقت خروجها ممتلئةً نشاطاً من جديد.

إنها الحرب...

نعم الحرب... الحرب... الحرب.

تلك التي تنشأ لأسبابٍ مهما اجتهد السياسيون في رصفها، وزيادة أوزانها، لا ترتقي لتكون أسباباً.

الحرب قد تنشأ لأنّ نعجةً عادية، قد تكون بلهاءَ وبلا أيّ قيمةٍ مادية أو معنوية أو غذائية، قتلها سوءُ الحظ في حدودِ بلدٍ مجاور. قد تنشأ لأنّ جرادةً بلا موهبةٍ كبيرة، هاجرت من بلد لتموت في البلد الذي يليه، ويبادله الصراخ لأنّ فتاة أحلام رئيس هيئةٍ للأركان في إحدى الدول، هجرته فجأةً، وامتلأ غضباً، ولأنّ السلْمَ كلمةٌ نابيةٌ في عرف البعض، وعليه يجب إبادتُها، وتنصيبُ الفوضى مكانها. ولأنّ هناك أشخاصاً كثيرين عليهم أن يموتوا بأيّ طريقةٍ... هكذا...

وفي أيامٍ معدودةٍ، كانت أبا ومئاتُ الآلاف غيرها بلا ضفافٍ

ترسو عليها أحلامهم، بلا بيوتٍ للسكنى، ولا رزقٍ، ولا حياةٍ، ولا يعرفون إلى أين ومن أين، وكيف ولماذا؟

كثيرون ماتوا بالفعل... كثيرون تمنوا أن يموتوا، وكثيرون كانوا محظوظين لأنهم لم يكونوا أصلاً أحياء، حين اشتعلت الحرب.

أبيا كانت من المحظوظين، غير المحظوظين.

محظوظة لأنها التحقت بنازحين من بلدتها أعانوها كثيراً في الرحلة، سهّلوا على أنوثتها تحمل تحرشاتِ رجال الحدود، وأعرابِ الطرقات الذين لم يكونوا ودودين ولا رائعين. وبدعمٍ بسيطٍ كانوا يلمّونه من هنا وهناك، داووا عندها الجوعَ والعطش، وشبهَ العُري أو العريَ كاملاً، حين تتمزق الملابس من كثافة الاستخدام.

محظوظة لأن ناقلي المهاجرين من الحدود إلى الأوطان المجاورة، كان معظمهم عشاقاً للنقود الخضراء، وحذرين من كمائن العسكر التي ربما تكون منصوبةً في الطرق والأحراش، فلا تشدهم تفاصيل المرأة.

لكنها أيضا غير محظوظةٍ حتى هذه اللحظة، لأنّ نهاية هجرتها، لم تكن بسعة الأحلام الكبيرة، ولأنها لن تنسق حتى حديقة البلدية العامة اليابسة، أو حديقة المستشفى، المغطاة بالقاذورات، في الوقت الحالي، وستصنع الشاي للعطاشى والمحبطين والمتعجلين بحقائبهم وآمالهم.

عبد القيوم. ما له عبد القيوم؟

هي تعرف جيداً أنها معجبة به، برغم ما تعرفه عنه، وحكاه هو

بنفسه في صحبته المكثفة لها، تلك الأشهر الماضية. تعرف أيضاً أنها تعجبه بصورةٍ لا تعتقد أن امرأةً قبلها أعجبته بها. هو سخّر طاقاته كلها لخدمتها، وأمدّها بالغزل الذي تحتاج إليه لتستمر، وبالحلوى التي تحبها أيضاً، وللأسف مهما ميزته، ومهما خصته بإلفةٍ لا تخصصها للآخرين، فهو في النهاية، مجرد فردٍ يقف في طابور عشاقٍ تعودت على تكوينه، منذ عرفت أنها امرأةٌ، وامرأةٌ جميلة حقاً، ولا سبيلَ لإدخاله عبر أيّ ثغرةٍ إلى أحد أحلامها، لأن أحلامها برغم ما حدث لها كله، لا تزال صلدة، لم تتداع أو تعتريها الثغرات. ولو كلمها مرة أخرى عن رغبته، أو اشتهائه، ستخبره صراحةً بأن له الأولوية في الولوج من أيّ ثغرةٍ في الحلم قد تحدث في المستقبل.

ثم أولئك الآخرون الذين لم ينقطعوا عن إجبارها على التعاسة، بإلحاحهم إما بكلمات الاشتهاء الركيكة، وإما بسلوكٍ يوضح حجم نزواتهم. وأيضاً يذكّرونها بأنها مجرد بائعة شاي في موقف ضاج، خاضعةٍ لقوانين الاشتهاء الفقير، يعشقها كلٌّ من هبّ ودبّ، وقطعاً لولا وجود عبد القيوم من حولها، لذابت من ثقل نظرات العيون.

لقد قيمت الذين تعرفهم من العاملين في المكان، أو الذين يذهبون ويجيئون كسائقي السفر، ومساعديهم، وبالطبع لا سبيل لتقييم العابرين.

عبد الباسط شجر، تقييمه صفر.

الرجل المسنّ المتعالي على الآخرين، بوصفه متعلماً في بيئةٍ

شبهِ ضحلةٍ، الذي يستخدم الحناء بكثافة لتلوين رأسه، ويستخدم ملح النشادر في الغالب ليبدو مستيقظاً نشطاً طوال اليوم، حتى وهو ساكنٌ في قيلولة. لقد سألها ذات يومٍ وهو يبدو شاحباً وسعيداً في الوقت نفسه أنه امتلك سؤالاً مثيراً ليطرحه على امرأة، كان ذلك قبل عدة أيامٍ أي قبل ان يتقدم للزواج الرسمي:

منذ متى وأنت تعيشين بلا رجلٍ؟

السؤال بسيطٌ بلا شك، ومعناه البسيط أن امرأةً ما، ضعيفةً ومغلوبةً وهشةً، تحتاج إلى سندٍ حقيقي أرفعَ شأناً من تخبّطات مخمورٍ ولصٍّ مثل عبد القيوم، والمعنى البعيد الوارف، والذي قطعاً يحتاج إلى وقفةٍ عنده، هو: منذ متى ورغبتك كامرأة بلا إشباع؟ أيًا كان فكلا المعنيين التقطتهما اللاجئة بسهولة، ولم تجب، لأن عبد الباسط شجر لم يكن هو الرجل الملائم ليصير عصا للتوكؤ، أو رفيقاً ناجحاً في اللحظات الحميمة.

كانت قد ألمّت بالوضع الجديد الممغوص لها[1]، إلماماً كاملاً، ليس عبد القيوم وحده، ليس عبد الباسط شجر وحده، ليس عباس الموت ولا المراهق ناهوم، ولا الدرويش إن نسي بخوره واتبع الغواية، لكن أيضاً تلك العيون التي تعرف أنها تتلصّص على نومها عبر شقوق الكشك، ولم تكن في الواقع تنام عميقاً، أو تتحمّس لممارسة الحياة البيتية، من نعاسٍ وتغييرٍ للملابس، وضبط منبه، والاستماع لأغنية، في كشكٍ غيرِ آمنٍ تماماً، برغم وجود الخفراء

[1] أي المحبط

الليليين في المكان، ولا يتسع إلا لها خاليةً من أيّ حلمٍ طموحٍ، وبرغم ذلك لا تفارقها الأحلام الطموحة... حتى حين تتدحرج إلى المرحاض العام في المكان، في أوقاتِ حاجتها، لأنّ الكشك بلا مرحاضٍ كما هو متوقّعٌ من مكانٍ ضيقٍ كهذا.

تحدثت مع الزمن كثيراً، وفرّت مرةً من عيني عبد القيوم إلى حيّ المرابيع المسكين بكل معاني المسكنة، أرسلت داعمها شبهَ المتفرّغ لحراسة جمالها، إلى السوق الشعبي البعيد، حيث تباع الحاجيات القديمة.

زعمت أنها تريد صندلاً من الجلد الأملس، ومروحةً من الريش، وقارورةً من عطر "يو آر" الرخيص، وأشياء أخرى يستغرق التنقيب من أجلها ساعاتٍ، في العادة. تركته يغادر ملبياً، وانفلتت للمرابيع، مهتديةً بالوصف الذي زوّدها به لاجئٌ من مدينتها في إريتريا، تعرفت إليه في موقف السفر، ذاتَ يوم على حين غفلةٍ من عبد القيوم.

في الحيّ المعذب بمجردِ فكرة أنه حيٌّ للاجئي الحرب، بلا خدمات، ولا احتمال أن تتعرف إليه الخدمات في المستقبل القريب، استماتت أبا لتستمتع بكلّ شيء. تعرفت بكثيرٍ من الأسر التي شردتها الحرب، وصادقت إحداها سريعاً وكانت عائلة رجلٍ مفقود. أكلت من طبيخ "الزغني" الحار المرتب بعنايةٍ بحسب شروط الوطن الأصلي، لا شروط الوطن البديل. عبّت من شراب الدكاي المخمّر، المصنوع من التمر والتوابل، ومواد أخرى أشدَّ خطورةً من خامات القنبلة الذرية. أقيم على شرفها، أو شرف

جمالها، حفل موقّت ومحدود الإمكانات، استمعت فيه لأغنيات مسجلة من الراحلة "جفرا عبد الحي"، والمطرب صاحب الصوت الشبعان "صالح صولو"، والولد الناشئ أبراهام جوزيف مارتن، الصامت إلا في رجة الغناء. رقصت وبكت وضحكت بكيانها كله، في ما يشبه الهستيريا الحلوة المرّة. غازلها كثيرون، وانضمّ إلى صفّ عشاقها كثيرون، واضطرت في أحيانٍ كثيرةٍ إلى تصنّع المغص والدّوار، حتى تنجو من إبهار شهوات الرجال. وحين أيقنت بأنّ لا وقت تبقّى لها لتستمتع أكثر، وتذوبَ أكثر، وتذوِّبَ الآخرين أكثر، وأنّ صيادها لا بدّ سيعود في أيّ لحظة ويفتقدها، لفّت رأسها بخرقة داكنة ومبتلة، وعادت إلى موقع السفر لترقد في كشكها الموحش وتنتظر، لتواجه عاشقها بوجهٍ غيرِ ملائكي قلصت عضلاته خصيصاً كما يتقلص وقت الصداع.

ضحكت وهي تنتظر، ولم تكن تعرف ما قيل عن الكيد النسائي، وكيف وُصف بأنه عظيم.

في ما تلا ذلك اليومَ، حافظت على بقائها في المكان، عاملةً تثير الحسد، وتتعرض من حين لآخر للفظةٍ نابيةٍ أو خدشٍ معنوي ممن يعنيهم أمرُ انتحارها، وتمهيدُ الطريق له بشتّى السبلِ، وأيضاً تثير الإعجاب ويزداد عدد عشاقها، يوماً بعد يوم. لكنها في الوقت نفسه لم تنس الوطن المصغر في حيّ المرابيع البعيد، وكيف قسموا أزقته وتلاله الوسخة إلى محطات سُمّيت على اسم أزقة أسمرا، وأحيائها، وشوارعها المجهزة للحياة، أو تلك المجهزة للموت.

كانت تذهب في كلّ فرصةٍ سانحة، تشتري مستلزماتٍ وطنيةً بحتة، من تجار فقراء، يجلبونها بطريقة أو بأخرى، وتجلبها هي لموقف السفر سرّاً، وأوشكت في إحدى الزيارات المتأنية، أن تبقى في الحيّ، من دون رجعة، وفي زيارة أخرى أكثر تأنياً، أن تتزوج بقمزحاي تيرسو، الذي قدّمه لها أشخاص تعرفت إليهم هناك، بوصفه أحد أفضل مفسّري الأحلام المعاصرين في العالم، وكان قبل الحرب، مفسراً خاصاً لأحلام سكان القصر الرئاسي، بدرجة وزير، وكثير الأسفار، إلى كل بقعةٍ في العالم تحتاج فيها الأحلام إلى تفسير.

قيل لها: كان قمزحاي تيرسو، يسكن في بيتٍ على طراز بيوت آل محشود، وآل سخي باد شاه محمد نور، رؤساءِ العصابات الدوليين في كابول، ويركب عربةً من طراز بي ام دبليو، يستبدلها في لحظاتِ الملل المتوقعة عند ثريٍّ مثله، بواحدةٍ أخرى من طراز بي ام دبليو أيضاً. وقيل لها: كان يتعطر بعطر توم فورد الملائكي الذي صمّم ليبقى على الجسد تسعةَ عشرَ يوماً وساعتين. ولا يهذب شاربه إلا بمقصات من طراز "بابا حسين" التي تصنع له خصيصاً في شنغهاي. وقيل لها: كان هستيرياً في تقديره للمرأة، وأبسط ما يقدمه لها ساعة من الرعب اللذيذ الفخم، على أرجوحة دوارة في مدينة الألعاب وولت ديزني، وممكن جداً لو انتبهت إلى رموزه وفكتها، أن تمتلك مزاجه الناريّ إلى الأبد. قيل أيضاً، إنه كان يستحم بمياه

تأتي مباشرة من منابع النيل، من دون وسائط، ويرتدي البدلة مرةً واحدةً فقط، ويوجد في أسمرا مستودعٌ كبيرٌ اسمه مستودع بدل قمزحاي المستهلكة، وكان في الحقيقة أرقى مستودعٍ في المدينة. ومن المؤكد أنها مرت به ذات يومٍ ولم تنتبه.

في البداية انصاعت لضغط تلك السمعة الفاخرة، تماماً مثل سمعة حلوى كواليتي استريت، ومخابز البتيل التي سمعت عنها كثيراً، ولم تتذوق منتجاتها حتى الآن. وجلست معه منفردةً على دكةٍ موحلةٍ وسط الحي، تتحسّس تلك المبالغات التي إن صدقت ولم تكن مبالغات، فقد تمّ اختصار طريق تحقق الحلم جداً، حتى لو كان مفسر الأحلام بلا ثروةِ الآن، بسبب الظروف، فقطعاً سيلمها من جديد، لكن...

كانت أبنا جميلةً، هذه حقيقة، وفي الوقت نفسه لم يكن جمالها غبياً إلى حدٍ أن تصدق تماماً أنّ جامع ثرواتٍ بهذا الحجم الذي ذكر لها، يعيش منهزماً بعينين مطفأتين، يتبوّل واقفاً على قدميه في أزقة حيّ المرابيع القذرة. وينفض سرواله من التراب، كلما جلس وقام. لم تسأله عن شيءٍ من الذي سمعته، وفضلت اختباره بقليلٍ من الإنهاك لترى بنفسها.

وبإلهام كبيرٍ هبط عليها في تلك اللحظة بالذات، حكت له حلماً مرتبكاً، لئيماً، هي من جمعه من هلوساتٍ مفككة، مثل: صراخ طفل اسكتلندي، ونعيق بومة برتقالية، واستخدام سيدة عجوز لمادة اليورانيوم المخصّب في تصنيع وردةٍ، وأدخلت إلى

الحلم حيواناتٍ لا تدخل الأحلام عادةً في العالم الثالث، مثل: كلاب الوولفَ وحيوان فرس البحر والكنغارو. وقال لها مفسراً تلك العجينة النشاز، وساقه اليمنى على اليسرى في تراخٍ، ويده على خده بكلّ تبجحٍ، وثمة خصلةٌ من شعره الرمادي الّذي تمّ تنعيمه قسراً بالزيوتَ والأعشاب، تتأرجح بفعل انفعالٍ لا تدري هل كان حقيقياً أم تمّت صناعته بغرض الإبهار:

سيدتي الجميلة، ستخرجين من كشك الشاي الفقير، في موقف باصات السفر، مباشرةً إلى سفينة عريضةٍ تحمل علم بريطانيا، تقلّك إلى جزيرة خضراء فيها كلُّ ما لذَّ وطابَ، سيلتقيك الكثيرون ويصيرون خدماً لك.

اكتشفت زيفه. سبّته، وتركته وفرّت من صحبته، وتفسيره للحلم الكاذب لم ينته بعد، وأفلتت من مستقبلٍ أشبه بمستقبل الجنازات، ذلك أنّ الرجل الذي قُدّم لها بكل تلكَ المواصفات، لا يعرف أحدٌ هويته بالضبط، وحتى الذين تفاخروا بسيرته، لم يحصلوا عليها إلا من لسانه هو. هناك تكهنات بأنه ربما كان خادماً سيئ الحظ، عمل لدى مفسر أحلام كبيرٍ وطرد قبل الحرب... وتكهنات أخرى، تشير إلى كونه مخبَراً أمنياً عادياً من أولئك الذين يغربلون الحسنات، بحثاً عن العيوب في كلّ مكان. أكثر من ذلك، كانت تكهنات أبا الشخصية وقراءتها لإحساسٍ خانقٍ أحست به، في صحبته، تشير إلى احتمال ورطةٍ قاسيةٍ، قد تحدث لها بسببه، في المستقبل القريب.

-٧-

كان يوماً مختلفاً بالنسبة إلى عبد القيوم، لكنه ربما لا يكون كذلك بالنسبة للاجئته التي من كثرة ما تردّدت على حيّ المرابيع وغيره من الأحياء التي تضمّ الضنك وشظف العيش واللامبالاة، وآلافاً على شاكلة: عزيزُ قومٍ ذُلّ. لم تعد تهتم كثيراً بصِلتها به، التي ابتدأت تبهت وتفقد الكثير من صفاتها الأولى، حين كانت صلة قاربٍ متأرجحٍ بمرسى يخفف من تأرجحه، لدرجة أنها لم تنتحب، ولا سمحتْ لعينيها بأن تغرورقا بالدمع البسيط، الهيّن، حين نجحت مؤامرة عبد الباسط شجر، وتلميذه الإثيوبي ناهوم، وبعض الأوغاد في موقف السفر، في إيصاله حتى أبواب السجن الاحتياطيّ، متهماً هذه المرة بسرقة شرف إحداهن، وهي من الجرائم التي يسهل اختراعها في أيّ زمانٍ ومكان.

لا يعرف عبد القيوم كيف عثروا على تلك المرأة بالذات، وكانت في الأربعين من العمر، ومغمورة، ومن الصعب مصادفتها في سكك الشرّ، وحتى في سكك الخير. زوّدوها بجزءٍ هامٍّ من

تاريخه الشخصي، وبعض صفاته الخاصة جداً، والتي لم يكونوا هم أنفسهم يعرفونها بدقة، وأوصلوها حتى باب قسم الشرطة الرئيسي في وسط المدينة، لتصرخ بصوتٍ مبتكر، فُصّل لها أيضاً، إن عامل رش الجراد الصحراوي، في موقف السفر، واسمه عبد القيوم دليل، هاجمها بعنفٍ في أحد الأزقة غير المطروقة، ومزّق ثيابها، وكاد يمزّق عفافها، لكنها فرّت في اللحظة الأخيرة.

وصفت الزقاق حيث جرت الحادثة، وكان وصفاً عادياً ينطبق على أيّ زقاق في الدنيا، بما في ذلك أزقة روما وبوخارست وكوالا لمبور، وبوركينا فاسو، وساحل العاج: ضيقٌ، كئيبٌ، شبه مهجورٍ، مبانيه قديمة، حيطان المباني سوداء، وردّدت أنها لا تعرف ذلك الزقاق، وصادف أن مرّت به لأوّل وآخر مرةٍ في حياتها.

بالطبع كانت مؤامرة كلاسيكية لأبعد الحدود، نُفّذت آلافَ المرات وبالأدوات نفسها في حقّ أشخاصٍ كثيرين، منذ بدء الخليقة: الأنثى الضعيفة المغلوب على أمرها، والرجل القوي الغالب في كلّ الأحوال. المرأة التي بلا ذنبٍ سوى أنَّ لها جسداً غاوياً، والرجل المذنب لأنه هستيري في قراءة إغواء الجسد. ولعلّ ذلك الشريط السينمائي الذي كان يعرض في سينما الإنكليز القديمة في وسط المدينة تلك الأيام، ويطرح الفكرة نفسها، هو ما حرّض عبد الباسط شجر ومناصروه على عدم الابتكار، والاكتفاء بالفكرة الجاهزة، وكان بإمكانهم تدبير مؤامرة خالدة، يبرك بعدها عبد القيوم، ولا ينهض بعد ذلك أبداً، كأن يحشوا جيوبه بمخدّر

مثل البانجو والحشيش، وهو سكران، أو يكتبوا بياناً باسم الحركة العمالية الشيوعية العالمية يحيّي كفاح الطبقة العاملة، ويدعو لغسل الحكم من العملاء والخونة، ويتركونه تحت وسادته في أيّ ركنٍ يجدونه نائماً فيه.

حتى بائعات الشاي العتيقات شاركن، ومن المؤكّد أنهنّ من صفّفن شعر المرأة بحيث يبدو مبعثراً جداً وشبيهاً بشعر ناجيةٍ من حادث اغتصابٍ، ومن المؤكد أنهن استخدمن مقصاً صدئاً في تمزيق ثوبها، ليبدو ممزقاً بالشكل الذي ظهر به.

كان عبد القيوم عادياً في ذلك اليوم، وبوصفه عاملاً لرش الجراد الصحراوي في بيئةٍ بلا جرادٍ صحراوي أو غير صحراوي، أصلاً، كان بإمكانه أن ينفق اليوم كلّه يحك جلده، من دون أن يسأله أحدٌ لماذا يحكه، وبإمكانه أن يسترق السمع إلى أيّ همسٍ كيف يشاء، ويلهو بنظراته، يلقيها على الصالح والطالح من تفاصيل المكان، لكنه لا يفعل ذلك والفتاة اللاجئة البديعة، مستيقظة ونشطة، تمنح النكهة للجميع بلا استثناء، وتبدو في إشراقها هدفاً عليه حمايته.

فجأةً خرج من وسط اللغط ثلاثةٌ من رجال الشرطة الرسميين، اقتلعوه من بساط المخمل، واقتادوه بعنفٍ، وقد بان صوته الآخر، الصوت الضعيف، الواجف، الذي كان مختبئاً منذ أشهر:

- لم أسرق أحداً... أقسم أنني لم أسرق.

نعم... كان صادقاً، وينكر أنه سرق، لأنه أصلاً كان سارقاً، والآن يمارس حياةً أخرى، تحت رعاية عشق طارئ... آخر مرّةٍ

سرق، كان من أجل العشق... استعار الأشياء الضرورية فقط لتزدهر صناعة الشاي، وسيردّها إذا كان لأصحابها نصيبٌ. لم يفكر أبداً أن الشرطة ربما جاءت من أجل تلك الأشياء، وفي العادة لا يأتون بعد مضي أشهرٍ على الأحداث حتى لو استدلوا على اللصوص. ولن يفكر أنهم جاءوا خلف بلاغٍ بأفعال جنسية مقرفة، قدمته امرأة، لأنه بلا سوابق في هذا الشأن، وأفعاله المخلة المعتادة، يرتكبها في المكان المخصص لها في حيّ الصهاريج، والأحياء التي تشبهه من حيث السمعة، وسعة الأفق الرديء. وحتى هذه لم يعد يتبناها كثيراً، منذ جاءت أببا.

كانت رأسه قد استدارت للخلف، وعيناه اتسعتا بنظرات كبيرة مشتعلة، ربما لوداع اللاجئة على أمل اللقاء قريباً، وربما لتوثيق لحظةٍ من أكثر لحظات العشق إحباطاً وتفاهةً وتنكيلاً بالعاطفة: لحظةَ الفراق.

كانت أببا قد تركت شايها يغلي ببخارٍ كثيف، ووقفت على ساقيها، وبدت في فستانها الأبيض المصنوع من التيل والمطعّم بحوافٍ من الدانتيلا الخضراء، طويلةً وهشةً، وشديدة الإغواء. صحيح أنها لم تضحك أو تبتسم، صحيح أنها لم تجلس لمعاودة نشاط بيع الشاي، لكن بالمقابل، لم تبك، ولم تنفعل بطريقةٍ إيجابية، ولم تترك كشكها، لتتبع موكب الشرطة، والفضوليين، حافية القدمين كما كان يتوقع من عرفوا بتضحيات عبد القيوم من أجلها.

في مركز الشرطة كانت المواجهة بين الجاني المفترض والضحية المفترضة، في غاية العادية، وبلا أيّ إبداعٍ أو فن، والشهود الذين أكدوا أنهم شاهدوا من يمكن أن يكون عبد القيوم، وهم مارّون بقرب مكان الاعتداء، كانوا أيضاً هواةً في الشهادة، واستطاع عبد القيوم تقييمهم بخبرته الطويلة في القوانين وثغراتها، بأنهم شهود من الدرجة الثالثة، يمكن بسهولة شديدة، أن يصبحوا ثغراتٍ تتساقط من خلالها التهمة.

ما كان طريفاً ودرامياً، أنه تعرف إلى المرأة الضحية، على الفور بالرغم من أنه لم يرها منذ زمنٍ طويل، ربما تجاوز العشر سنوات، حين كانت ممرضةً مبتدئة، في المستشفى الحكومي الكبير، وكان يتردد على المستشفى بشكل شبه يومي، لعدةِ أشهرٍ، لعلاج جروحٍ في ظهره وساقيه، نشأت من لغة السجون في تعاطيها مع السجناء، ونشأ بينهما ما يعرف بصداقة الروتين، أي تلك الصداقة التي تحدث حين تصادف شخصاً ما باستمرار، بالرغم من أنك قد لا تتحدث معه ولو بكلمة.

هتف عبد القيوم بعد أن واجهها:

– المدسوسة؟

كان اسمها المدسوسة بالفعل، ولم يكن اسماً عظيماً يتحرّق المرء شوقاً لسماعه، لكنها من قبيلة لها آراؤها وتقاليعها وأيضاً زعمها الخاص، وكان اسم المدسوسة من أسماء نسائها القيمة، ويعني الجوهرة عندها، وهو ما لم تؤكده أيّ افتراضات أخرى،

ولم يرد في أيّ قاموسٍ من قواميس اللغة العربية...

- المدسوسة؟

ساعتها عرفته على الفور، تذكرت صداقة الروتين التي كانت بينهما، وستة أو سبعة سندوتشات من الزبد ومربى القرع والبرتقال، أهداها لها طوال فترة صداقتهما الصامتة.

تذكرت أنّ شعره كان أكثر جاذبيةً، وأنفه شديد التهذيب، يشمّ الإغواء، ولا ينفعل، وفي عينيه نظرات رجل قد يأتي يومٌ وتفخر به امرأة. تذكرت كيف سقط المطر في موسمٍ ليس موسم سقوط أمطارٍ على الإطلاق، وكيف انقطعت الكهرباء في المستشفى مراتٍ عدة وكان صادقاً وحكيماً في وصفه للظلام، بأنه مجرد ظلامٍ فقط لا غير. تذكرت أنّ فتاةً مخبولةً، سمراءَ، كبيرةَ الصدر والعينين، ينادونها حنان الشوكولاتة، كانت تلازم والدها المصاب بتجلّط في الرأس، وتقرأ رواية لغادة السمّان تحت سلم عنبر الحوادث، كانت تعرفه وتمنحه سجائر محلية يابسة تخرجها من حقيبتها القماشية. تذكرت أن مدير المستشفى في ذلك الوقت، كان اسمه الدكتور جردل، ورئيس ممرضي عنبر الحوادث، كان اسمه جوهرجي، وكان يحضر زوجته العروس، في زيّ أبيض شبيه بأزياء الممرضات، لأنها تخاف من البقاء وحيدةً في البيت، واضطرت المدسوسة في سبيل أن تضغط على نفسها، لتسحب شكواها، أن تتذكر أمراً جيويا للغاية، كان له وقعه الكبير لديها في ذلك الزمان، وهو أن عبد القيوم كان أوّل من عاملها كأنثى

ملهمة، في بيئةٍ تعودت على اغتيال أنوثتها بوصفها ممرضة فقيرة وعمشاء، ذلك حين أهداها مانيكير أحمر من ماركة "تي واي" المقلدة، ووقف أكثر من عشرين دقيقةً يتأمل أظفارها بعدما أشرقت بالطلاء، ويتمتم: رائع... رائع... رائع.

لكن، وبالرغم من ذلك كله، لم تعتذر ولم تسحب شكواها، ولم يبد عليها أنها ستنزع صندلها القديم وتضرب به أحداً ما، عبد الباسط شجر مثلا، ناهوم الإثيوبي... مثلاً... رجل الشرطة المتعاون مع الرجس... مثلاً...

كانت غريبةً فعلاً، ولم تعرف لماذا هي غريبةٌ هكذا... وعبد القيوم نفسه انتبه لغرابتها تلك، ولم يسع لتحويلها إلى إلفة بأيّ صورة من الصور.

عبد الباسط شجر كان موجوداً في تلك المواجهة، ليس بصفته عاشقاً للاجئة ومدبراً للمؤامرة التي ستزيح غريمه الرئيسي بالطبع، ولكن كرئيسٍ لمكانٍ يعمل به مرتكب الحادثة، عاملاً في رشّ الجراد الصحراوي. ناهوم الإثيوبي كان موجوداً، يبث رائحته الملعونة، ويملأ سيده بالحماسة ويذكره بموعد تناوله دواء السكر، وارتفاع الضغط، وحبات الأسبرين المساعد لسيولة الدم. الدرويش تمّ استدعاؤه بلا هدفٍ يخصّ طقوسه، لأنه جاء وحيداً بلا مبخرٍ ولا بخورٍ، وفوجئ عبد القيوم حقيقةً حين تأكد له أنّ المرأة الملثمة التي تجلس معهم في غرفة التحقيق، وتعبث بخاتم ذهبيّ كبير ذي فاروصة خضراء، يغري بالسرقة، هي الخالة مستورة، نجمة

حيّ الصهاريج. لم يستطع سؤالها، ولن يستطيع أن يعرف سبب وجودها أبداً، لأن الخالة المشغولة بأمور كثيرة متناقضة، وخاضعة بصورةٍ مستمرةٍ للمساءلاتِ الطفيفة بشأن نشاطها، وضرورةِ خلوٍّ فتياتها من البرود العاطفي، من أجل المصلحة العامة، لا تستطيع أن تتذكر، لِمَ كانت في ذلك اليوم، وتلك اللحظة بالذات، في مركز شرطة المدينة.

-٨-

لم يكن السجن الاحتياطي، الذي يقع مبناه قريباً من شاطئ البحر، جديداً على تذوق عبد القيوم، فقد دخله عشرات المرات من قبل وخرج منه، أثناء تسكعه المزمن والحاد، في سكة اللصوصية العظيمة.

كان مبنى السجن، بجانب عدة مكاتب إدارية صغيرة، مجردَ غرفة كبيرةٍ بلا تهوية تقريباً، يتكدس فيها المشبوهون ساعاتٍ أو أياماً، أو حتى أشهراً، تمهيداً لمحاكمتهم، ومنحهم الحرية، أو حبسهم في السجن الكبير، لتنفيذ ما يحاكمون به من مُدد.

كان يعرف أين كتب تذكاراتِه القديمة، وأسرع يتفقدها حالما أغلق باب الحبس، ووجد معظمها موجوداً، لم تطمسه التذكاراتُ الكثيرة التي نحتها موقوفون آخرون على مدى سنوات، مستخدمين الفحم، والدم، وأظفارهم المسننة.

كان من العادي جداً أن تجد تذكاراً عاطفياً ملتهباً يصيح: يا سلمى... يا سلمى أحبك. وتذكاراً جنسياً فاحشاً: يا سلمى... يا سلمى سأفترسك قريبا. وتذكاراً وطنياً من المفترض أنه صادق

وأمين، يتغنى: نحن جنودك المخلصون يا وطن. وتذكاراً أبوياً غاية في الرقة، يهمس: سأعود يا ولدي، سأعود، وأمنحك قبلة. وقد أعدّ مرةً أحد الصحافيين المغامرين، كتاباً سمّاه **تذكارات محبوسة**، كان يضم تذكاراتٍ نقلت من حوائط سجونٍ متعددة، زارها من أجل ذلك الغرض، وخلص إلى نظريةٍ مفادها، إن النفس البشرية، دائماً ما تكون أكثر صدقاً وشفافيةً، حين تغلق في سجن.

لاحظ عبد القيوم، بمجرد أن تأكّد من وجود تذكاراته، وأضاف إليها تذكاراً جديداً عن قلبه الذي في موقف السفر، بقلم روج كان في جيبه وكان ينوي إهداءه لأبا كي يرى شفتيها حمراوين فقط، أنّ بيئة الحبس مختلفةٌ هذه المرة. كان الموقوفون الموجودون، مؤدبين للغاية، لم ينهضوا من أماكنهم لإبداء أيّ رأيٍ شرير، ولم يطلبوا سيجارةً أو ينتزعوها من خلف أذنه، كما كان يحدث في الماضي...

كان الضابط الذي تسلّمه، وأرسله إلى غرفة الحبس صحبة عسكريٍّ هادئ وكبير في السن، امرأةً مليحةً وناضجةً ومشتهاةً إلى حدٍّ ما، ولها خصلاتُ شعرٍ سوداءُ مدهونةٌ بزيت لمّاع، تنساب من تحت غطاء رأسها العسكري. لاحظ أيضاً أن بلاط المبنى، نظيفٌ ولامعٌ، وجبريل الفرّاش القديم في المكان، الملقّب بولد الضبع، نسبةً لساقيه القصيرتين وأذنيه اللتين تغطيان مساحةً كبيرةً من الفراغ على جانبي وجهه، قد بات أنيقاً، في زيٍّ أبيضَ، ويضع أيضاً ساعة يدٍ من سايكو، لم يكن يضعها من قبل.

لم يفهم قطّ لماذا استبدلوا العقيد عمر الكرباج بضابط أنثى،

ولماذا أدخلوا تعديلاتٍ في النظافة والنظام. ومن أين جاءت كلّ تلك العصافير التي تتبادل الأغنيات على سقف المكان. وفضّل أن لا يفكر، وحقيقةً لم يكن سيعرف أنّ تلك التغييرات كانت موقتةً، وغالباً ما تلغى بعد يومٍ أو يومين، أي بعد انتهاء ما يسمى عيد السجين، وهو عيدٌ محليٌ، بلا أيّ فائدةٍ للسجين، طُرح نظرياً منذ عدة أعوامٍ، لكنه لم يطبق إلّا هذا العامَ فقط.

انحاز لثرثرةٍ داخليةٍ مع نفسه، يسألها:

لماذا حدث كلُّ ما حدث؟

ولا ردّ.

هل دبّرت أبيا ذلك، أو شاركت فيه؟

لا ردّ.

هل حواء وسعيدة، وسيدة الجيل، شاركن أيضا؟

ولا ردّ.

متى سأخرج لأنتقم، أو أسامح؟

وهنا أيضاً، لا ردّ.

فالذي يدخل، هو في ذمة من أدخله، وما لم تدرس تلك الضابط قضيته جيداً، وتتأكد من ذلك الفخّ الذي نُصب له، لن يخرج، وقد يستغرق ذلك أياماً طويلةً، ويعرف أن النساء دقيقاتٌ جداً، وبطيئاتٌ جداً في تقصّي المصلحة العامة، ما لم تكن تمسهنّ شخصياً، ولولا أنّ ثمة ظروفاً طبيعية تسيطر على عالم المرأة، وتبعدها قليلاً عن سكك التقصي التي يتسلّمها رجل، لما قُضيت حاجة.

في قمة تأمله، وهو يوشك أن يطرح على نفسه سؤالاً جديداً، ربما يكون مهماً فعلاً، وربما يكون من سلسلة أسئلةٍ بلا معنى، وتُطرح على النفس لكسر الملل، فوجئ بواحدٍ من الموقوفين الذين كانوا هادئين حتى تلك اللحظة، يجلس على ركبتيه بجانبه، ولم يكن قد لاحظ أنه تحرك من مكانه حتى.

كان نحيفاً، رماديَّ الشعر، وعيناه صغيرتين جافتين، وقد نبتت في ذقنه عدة شعيراتٍ هزيلة بيضاء، أخفقت كما يبدو في أن تكون لحية رجل. كانت أسنانه غير واضحة تماماً في العتمة، لكن تفوح منه رائحة جرذٍ. همس:

- تحياتي يا صديق، أنا قمزحاي تيرسو.

في البداية لم يألف عبد القيوم اسمه على الإطلاق، وبدا له شبيهاً باسم مدمرةٍ أميركية الصنع، تتلفت بخبث على شواطئ البحر الأحمر. فكّر أنه يشبه أيضاً أسماء متطرفين يهود، شاهدهم في نشرة للأخبار، يرددون أمام هيكلهم: اشكروا الرب، اشكروا الرب. وأسماء ديدان المحاصيل التي يلعنها المزارعون باستمرار، بوصفها من ألدّ أعداء الحياة الرغدة. وتذكر أنه شاهد مرةً في سينما الإنكليز، القريبة من موقف باصات السفر، والتي يغشاها من حينٍ لآخر من أجل كسر الملل، شريطاً سينمائياً عن سطوة المال في وول ستريت، بنيويورك، كان فيه ممثل يؤدي شخصية سمسار عقارات مدمن على المخدرات، اسمه قمزحاي.

أربكته اللحظة بالتأكيد، ولم يقل شيئاً، بينما أكمل الغريب:

– أنا منتجٌ سينمائي.

الرجل نفسه الذي قُدِّم للّاجئة أبا، في حيّ المرابيع المنتفخ بإخفاقات اللاجئين، بوصفه مفسِّر أحلام عالمياً، وكان من الممكن أن تصاحبه كعشيقة أو زوجة، لولا أن جمالها لم يكن غبياً لهذه الدرجة، يقدّم نفسه الآن بمهنة أخرى، بعيدة عن تفسير الأحلام، ويسكت من دون أن يمنح سيرته التي يشكّلها وينوّعها بحسب المكان والناس، فرصة أن تنساب وتؤكّد أنه يحافظ على رشاقة الجسد بالركض اليومي عشرين ميلاً، يأكل بيضتين مسلوقتين فقط في اليوم، لتظل سعراته الحرارية متوازنة، ويتدرب باستمرار على تقوية ذاكرته، حتى تكون صافيةً، حين يجد الوقت لكتابة مذكراته.

عبد القيوم لم يكن معنياً بكل ذلك حقيقة، وعلى رأسه ورمٌ شعوري بائس، أكبرُ من أن يستأصله، ويجلس خاوي الوفاض، يستمع إلى أحلام لاجئ فرَّ من الحرب بمستواها المميت جسدياً، إلى حربٍ أخرى قد تشله عقلياً. هو لا يعرف ماذا في سجلات ماضيه، وما الذي جاء به إلى سجن الاحتياط بإحباطٍ وسيم كهذا، فليس من المعتاد أن يصادف أحدٌ منتجاً سينمائياً، حتى فيّ الحياة الحرة، فكيف عن التي خلف القضبان؟

ما تكوّن في ذهن عبد القيوم تلك اللحظة، وبدا له منطقياً ولا يحتاج إلى ليِّ عنقه حتى يتمنطق، واستوحاه من هيئة الرجل العامة، من شعره الذي كان مبعثراً لم يلتمّ بتسريحة تهذّبه منذ زمن، وسرواله الواسع خاصةً في منطقة الخصر والأرداف، وواضحٌ أنه صدقةٌ من

فاعل خير، وحذائه الذي كان من قماشٍ ممزقٍ وبائس، هو أنّ الرجل ربما عمل ساعياً في سينما، أو متسوّلاً أمام سينما، أو وعدت بتشغيله إدارةُ لسينما، أو حصل مجاناً على تذاكر دخولٍ للسينما، وربما أيضاً يقوم بسرقة الناس في طوابير السينما... هكذا، ومهنة المنتج التي اختار أن ينسبها لنفسه، كانت خاطئةً، لأنها مهنة ثراءٍ بحت، حتى لو قامت آلاف الحروب، وتشرّد ملايين الناس، لن يحدث أبداً أن تجد منتجاً سينمائياً، يتنفس في جحر مثل هذا، ويأكل العدس والفول البائت، برفقة لصوصٍ مغمورين.

لكن مهما كانت مهنته ومهما كان حلمه، ماذا فعل ليدخل السجن الاحتياطي؟ هو عبد القيوم، أحبّ امرأةً مشردةً، أخلص لها، آواها في ظلٍّ وستر تشردها بمهنةٍ ذات عائدٍ، وعاقبه عشاقها الآخرون بتلك المدسوسة المرتبكة.

- ماذا فعل قمزحاي تيرسو؟

فجأةً فكّر بعمقٍ في المدسوسة، صديقة الروتين القديمة التي تآمرت، ولم تكن مضطرةً لتتآمر.

المدسوسة...

يا له من اسم تستحي منه حتى تلك النعجة البدينة التي كانت مربوطةً في حوش جدته، في الغرب، لو سميت به.

حسناً يا قمزحاي تيرسو:

- أنا عبد القيوم دليل، كنت لصاً معروفاً، حتى عهد قريب، والآن أعمل في مكافحة الجراد الصحراوي.

- تشرفنا.

قال قمزحاي، بلا أيّ جهد، وضغط على يده، بيد رشيقة، معدّة كما يبدو، بطريقة جيدة، لتكون أفضل من أيّ يد أخرى، تمتدّ لمصافحتها، مهما كانت الظروف: النعومة، الأظفار المصقولة المرتّبة، الإحساس بطعم المصافحة.

باختصار كانت يد عاشقٍ رومانسي.

يد عبد القيوم، كانت خفيفة، ورشيقة أيضاً، لكنّ ملمسها كان بذيئاً وفاحشاً ويمكن أن يؤثر سلباً على أيدي الآخرين.

-- هل تبتَ بإرادتك، أم اضطررت للتوبة؟

كان قمزحاي يسأله، وقد اهتمّ كثيراً بالسؤال: نظّفه من أيّ شبهة، ودوّره في حلقه مراتٍ قبل أن ينطقه، وكان وفياً لقواعد التهذيب، فلم يشعل تلك السيجارة التي في يده، أو يهتم بالذبابة المزعجة التي تحط على أذنه منذ عدة دقائق، على أنه كان يدور بعينيه في جسد عبد القيوم، كأنه يبحث عن إجابةٍ ما سيقارنها بإجابة عبد القيوم.

في بلاده كان التائبون من الإجرام بإرادتهم محظوظين، لأنهم يتوبون وفي أصابعهم أظفارٌ لا تزال، بعكس المضطرين الذين ربما تنزع عيونهم حتى.

- بإرادتي.

هل كان صادقاً؟ هل كان كاذباً؟ من الممكن هذا أو ذاك، فقط من المؤكد أنه، وقبل ظهور اللاجئة أبا بيومين فقط، سطا على بيت

اليوناني نيقولا بشيشو منقريوس، أحد تجار الأغذية المعروفين، في حيّ الإغريق القديم، وخرج بمئة دولار حوّلها إلى نقودٍ محلية، واشترى تلك الثياب الجديدة. وخرج أيضاً بساعة من ماركة إيبل، صرفها بصعوبة شديدة، وسعرٍ زهيد لامرأة اسمها عاطفة، وكانت من آثمات حي الصهاريج، لكنها تتربح من غنائم السرقات. ولا يزال حتى اليوم يتردد أحياناً على دكان نيقولا، يشتري سجائر، وكوكا كولا، وآيس كريم، ويقرأ تقاطيع وجه الرجل العجوز، ونظراتِ عينيه، برغم تأكده أنه لم يره وهو يسطو.

حتى بعدما جاءت اللاجئة، سَطا وكان هذه المرة من أجلها هي، من أجل حبّه. كانت استعارةً وليس سطواً.

– تهانينا يا دليل، لكن لماذا أنت هنا؟

كانت زنزانة الحبس معتمةً قليلاً، وبرغم ذلك قرأ السؤال في عيني قمرحاي قبل أن يسأله، ولعلّ قمرحاي قرأ السؤال نفسه في عيني عبد القيوم، وكان من المؤكد أن يسأله:

– لماذا أنت هنا؟

وبشيءٍ من التوسع: – لماذا كلّ هؤلاء هنا؟

وقبل أن يجيب، كان عليه أن يثق أولاً بقمرحاي، لأن الإجابة ليست كلمتين مستهترتين، يلقيهما بلا تفكيرٍ في شبه العتمة تلك، ويتنفس بارتخاء، إنما هي قصةٌ طويلةٌ ومعقدة، قصة لصٍ ولاجئة، ضحيةٍ وضحيةٍ أخرى، هاربةٍ من قدرٍ، ولاصقٍ بهذا القدر.

حكاية قد تستغرق ساعةً كاملة، عن واحدةٍ جالسة في قلبه،

وسعيدٍ بجلوسها، لكنّ هناك من حوّل هذه الدراما الطيبة القلب، إلى جمر.

قمزحاي قرأ السؤال بلا شك، وسبقه في الإجابة:

– أنا هنا لأنني اضطررت في الوقت الحالي، وتحت ضغط اللجوء، أن أعمل متسولاً، ولم تكن مشكلةً كبيرةً، لولا أنني جلست في ركن كان يجلس فيه، عادةً، متسولون راقون وذوو نفوذ. هل فهمتني؟

قال وأدخل السيجارة التي كانت في يده، إلى جيبه، وأخرجها من جيبه مرةً أخرى، أو ربما أخرج غيرها، أشعلها بثقابٍ مريضٍ، سقطت منه عدة أعوادٍ، قبل أن يشتعل عود.

كانت السيجارة من ماركة روثمان كينغ سايز، وكانت المرة الثانية التي يشاهد فيها عبد القيوم متشرداً فقيراً حالمَاً يدخن روثمان كينغ سايز.

– نعم.

قال عبد القيوم، ومدّ يده، إلى خلف أذنه، استلّ سيجارته اليابسة، أشعلها بلهب من سيجارة قمزحاي، وجرّ منها نفسين ثم أطفأها، وأعادها إلى خلف الأذن، لم يقم بأيّ محاولةٍ أخرى لإلهاء قمزحاي، بحيث ينسى انتظاره للإجابة، وفضّل أنْ يحكي قصته مع أبيا تسفاي.

كان زملاء الحجز، هادئين تماماً، ومستغرقين في تأملاتهم، أو أحلامهم، ولا وجود لأيّ شرٍّ يتحاوم.

- ٩ -

في منتجع الساحرات، لم تكن البهجة الغادرة بحاجةٍ إلى إعدادٍ من أيّ نوعٍ، ومع عودة عبد الباسط شجر، ومساعده ناهوم عرجا، والدرويش، وعباس الموت، وعددٍ من الذين انضموا لمتعة أن تمشي خلف عساكر من الشرطة يجرّون مشبوهاً، وتحلم بأن تتاح لك فُرصة صفعه على الخد، أو تحطيم أسنانه، أو رش رغوة صابون تحت قدميه، ابتدأ طقس الوعورة.

كان المساء العادي قد حلّ تقريباً، وحركة السفر من المدينة وإليها قد خفتت تماماً، حتى تحوّل فورانها المعهود إلى همسٍ... ثمة باصٌ مسافرٌ، وباصان فقط قدما لتوّهما، وانفضّ تعب المسافرين.

جلس عبد الباسط شجر خلف مكتبه المتسخ، في الكشك الصغير، وابتدأ يرسم ضبعاً ميتاً هذه المرة، فقد كان توتره الشخصي أكبر من احتمال الفئران والصراصير، وما أنجز في شأن عبد القيوم وقصة تغطيته لقلب اللاجئة، ومنعه من الإبصار، وتأمل قلوبٍ غير

قلبه، يكاد يكون مكتملاً فعلاً.

لقد تعاونت المدسوسة، المرأة الأربعينية، التي عثر عليها ناهوم، هكذا مصادفةً، في إحدى البؤر الفقيرة، بطريقةٍ جيدةٍ، وسردت ما أُمرت أن تسرده تماماً، من دون زيادةٍ أو نقصانٍ، وحتى بعدما تعرّف إليها عبد القيوم وعرفته، لم تغيّر شيئاً. ناهوم هذا برغم رائحة جلده السيئة، وسلوكه الغريب أحياناً حين يمسك نملةً بين أصابعه ويقبّلها، أو يبكي ويضحك معاً في الوقت نفسه، أو يحاول أن ينشئ علاقة حبّ مع امرأةٍ في سنّ جدته، إلا أنه مفيدٌ للغاية، ولذلك يبقيه في وظيفته، قريباً منه، وكان يستطيع استبداله بآخر، أنظفَ وبلا رائحةٍ، في أيّ لحظة.

الشهود الذين وَصفوا زقاق التحرّش الوهمي، واختارهم هو وحده، مع الأسف، بناءً على تزكية من أصدقاء، وصفوهم بأنهم الأبرع في شهادة الكذب، لم يكونوا جيّدين كفايةً، فلم تكن نظراتهم للمشبوه، تطابق ما تقوله ألسنتهم، وهذا بلا شك خرقٌ للعقد الشفاهي الذي وقّعه معهم، وهو أن يتوحدوا بذواتهم بحيث ينطق اللسان، وترى العين، وتسمع الأذن، ويتذوق اللسان، بحاسة واحدة. لكن لا بأس، فقد قبلت شهادتهم، ورحل غريمه إلى السجن الاحتياطي، ومهما حدث من شيءٍ غير متوقع، وأطلق مرةً أخرى، فلا أقلّ من خمسة أيام، أو سبعة، يقضيها هناك، قبل أن يزغ هنا، وهي فترة كافية، ليس لامتلاك اللاجئة فقط، ولكن حتى لترويضها وفطم عواطفها تماماً، وتدريبها على عشق المسنّين

المصابين بضغط الدم، والبول السكري، وعدم مواكبة الرغبات الأنثوية، في أيّ وقتٍ تريد.

عبد الباسط، رسَم قطّاً ميتاً أيضاً، رسم ثعباناً لم يستطع أن ينزع جلده، ورسم حماراً أسود يحتضر قرب نهرٍ جافّ، لكنه لم يستطع أن يجعله ميتاً تماماً. رسم دمعةً كبيرةً بلا مصدرٍ، وبرتقالةً لها ملامح ضبٍّ، وعملةً من فئة المليم، انقرضت منذ عهد، ولا يدري لمَ أعاد إحيائها على الورق. وحين صرخ منادياً مساعده: ناهوم... يا ناهوم الحبشي، يا عرجا، كان قد بلغ تلك الحالة الخاصة جداً من الاختناق بالشجن، التي يحتاج فيها المخنوق إلى حضن أمٍّ أو حبيبةٍ، ولأنّ لا أماً متوافرة في المكان، وفي الدنيا كلها لواحدٍ في مثل سنه، والمرأة التي سيتزوجها اليوم بأيّ طريقة، ليست حبيبةً وإنما واحدةٌ ارتدت لوناً أصفر ذات يوم، وأيقظت قدراته الخامدة، فقد اضطر إلى أن يحتضن نفسه بجهوده الذاتية، فجعل رأسه ملتصقاً بصدره، ويديه تحيطان الرأس، وحين دخل ناهوم برفقة شيخ تمّ استدعاؤه لعقد القران، في مكانٍ لم يعقد فيه قرانٌ من قبل، ولا يتوقع أن يعقد فيه من بعد، كان قد استرخى حقيقةً بضمّ نفسه، وفكّر في أن يجعلها طريقة للسلوى، يستخدمها كلما احتاج إليها، إلا إذا اختلت شهوة اللون الأصفر، وتحوّلت أبا إلى حضنٍ دائم.

كان الدرويش قد ظهر أيضاً، وبدا مستعداً ليصبح شاهد عرس إن احتاجوا إلى شهادته. ظهر عباس سالم الموت، وظهر المجنون

علقم، وكان مدرّساً قديماً من زملاء عبد الباسط وجُنّ، واعتاد أن يظهر في أيّ مكان، لعدة دقائق ويختفي، وقيل إنه ظهر مرةً في اجتماع مغلقٍ بين رئيس البلاد، وقيادات المدينة، أثناء زيارة الرئيس لها، وظهر فراج النور، الذي يسمي نفسه أبو المقداد، وكان أحد العائدين مؤخراً من بلاد الشيشان، بعدما أمضى زمناً هناك، وكان من أقارب عبد الباسط شجر اللصيقين، وبينهما عداءٌ مزمن، نشأ من اقتسامهما لفقرتي القول المأثور:

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

ففي الوقت الذي كان شجر يتبنى الفقرة الأولى، ويعمل لدنياه فقط، كان النور يتبنى الفقرة الثانية، ويعمل لآخرته فقط كما يعتقد، وكم من مرةٍ التحما في صراعٍ مجنونٍ، كلٌّ يحاول تثبيت فقرته، والآخر لا يسمح له.

لكن ما الذي أتى بذلك المتشدد، المهووس بالخطب القديمة، ومآثر السلف الصالح، والذي أخفق حتى الآن في اقتناص أيّ فرصةٍ أتيحت له للموت بطريقة مأسوية، واللحاق بركب الشهداء الذين يتغنى بموتهم؟ لا غرق ولا احترق، ولا تهشّم رأسه من حادثي طريقٍ تعرّض لهما، وحتى حربه في الشيشان، التي مات فيها كثيرون ذهبوا معه، عاد منها كاملاً لم ينقص منه حتى صمغ أذنيه. أكثر من ذلك، عاد بامرأة.

لم تكن اللحظة مناسبةً لتبادل نقاشٍ من أيّ نوع، ولم تكن

مناسبةً أيضاً لمدّ اليد وخنق أحدهم، ولا مناسبةً لأيّ شيءٍ آخر، خلافَ أن يتحركوا وهم يمسكون بخيوط البهجة، ليضفروها عند الكشك الأزرق، حيث من المفترض أن ثمّةَ عروساً بديعة، واستثائيةً تنتظر عريساً بعيداً جداً عن أيّ حلم حلمت به حتى الآن. وكان يوجد عددٌ من اللاجئين الإريتريين، زملاءِ العروس المفترضة، هناك، أحضرهم ناهوم كذلك بإيعازٍ من شجر، من أجل إضفاء الصبغة العشائرية والطائفية على عقد القران، تماشياً مع التقاليد العامة للبلاد.

كان فراج النور أبو المقداد، كما يبدو، قد عرف بأمر قريبه شجر، ورغبته في الزواج من لاجئة، صنعتُها بيعُ الشاي في منتجع الساحرات، فلم يكن الأمر سرّاً على أحد، وما ينقله المسافرون، والعائدون من السفر، والمبثوثون بلا غرضٍ في كلّ أوحال الدنيا، أعظم كثيراً من الذي تنقله وكالات الأنباء المعتمدة لدى الدول. حتى هذا الملتحي المتمسك بعباراتٍ معينةٍ لا يغيّرها مهما تقدم به العمر وتطور الزمن، مثل: الخلوة الشرعية، والتوبة، والموت، والنكاح... كانت أخبار اختفائه، في تلك البلاد البعيدة، غير المطروقة كثيراً، تأتي متلاحقةً عبر السفر، وما يمكن أن ينقله المسافرون، حتى لو كان مسافراً واحداً فقط، ذهب وعاد. وحين عاد إلى البلاد بعد ثلاثة أعوام، لم يفاجأ أحدٌ بعودته. على العكس، كان بعض أقاربه ينتظرونه في صالة الانتظار بمطار العاصمة، وجهّزت الحناء، وعطور الشبق الليلي المحلية، من قبل نساء من

العائلة، من أجل زوجته الشيشانية، التي ذكرت الأخبار أنها قادمة معه.

وهم يبدأون التحرك نحو مكان اللاجئة، متجاهلين تجهّم فرّاج، وحركات لسانه الذي يتشوق لرصّ الكلام، اضطر أن يصرخ هو، منبهاً الإهمال في حقه، أن ينتبه. لقد جاء في تلك اللحظة مباركاً لا ذامّاً كما توقع شجر، فقد دأب على الحلم في الأيام الأخيرة، بأن كثيرين من أقاربه اهتدوا، وانضموا إلى ركب الشهداء القادمين، وكان يلتقيهم في الحلم ويصافحهم، كان فيهم عبد الباسط شجر.

ردد التهنئة بصوتٍ عنيفٍ، متجهم، وخالٍ من أي رنة من رنات الطفولة والمرح، التي تبدو جليةً في أصوات العاديين. كأنّ التدين سيفٌ وخنجر، وساحة حرب، وكأنّ الإمساك بالسيَر الصالحة، جمرٌ، والسيَرَ نفسها، نتوءاتٌ حادة تحدّ من تذوق الحياة.

كان ثوبه قصيراً جداً، ويقترب من الركبتين، وسرواله الأبيض الفضفاض، قصيراً أيضاً لدرجة أنّ قطةً أليفةً، كانت تتنزه في مكتب شجر، انجذبت لشعر الساقين، وتمسّحت به.

تقبّل شجر تهنئة قريبه بشيءٍ من العناد، وقد اعتبرها شبهَ إساءةٍ لكنها غير ضارة. لم يدع قريبه للذهاب معهم إلى حيث سيتم عقد القران على أبسطة المخمل أمام الكشك، ولم يدعه حتى ليفسح الطريق لموكب الفرحة كي يخرج، بل مدّ يده، أزاحه، وانطلقوا...

ولأنّ المسألة كانت سوقيةً وقسريةً وفيها إبعادٌ متعمَّد لمنافسٍ كبير بلا وجه حق، ولأن اللاجئة أصلاً لم تقل لأحد قبلت، ولم

تقل لم أقبل، ولا حادثت أحداً بعدما تسلّمت مهرها المرسل، فقد كان لا بدّ أن يحدث ما حدث، وما جعل رئيس السوق يصغر كثيراً في أعين من تتبعوا نزوته، خاصةً مساعده ناهوم، الذي سيصرح لاحقاً بأنه كان يعرف، ويخاف من معرفته.

- ١٠ -

كانت أبسطة المخمل الملاصقة لكشك أبا، فارغةً إلا من بقايا ترابٍ وقذارةٍ، وحشراتٍ ميتةٍ، لا بدّ من تأثير أحذيةٍ كثيرةٍ ومتنوعة، قادمةٍ من حَوارٍ وأزقةٍ، داست عليها في ذلك اليوم.

الكشك نفسه كان هادئاً، ومغلقاً بقفلٍ متين، وغيرَ مضاءٍ من الداخل، وكانت ثمة وصلةٌ كهربائية أُدخلت إليه من عامود قريب، بواسطة عبد القيوم أيضاً، بعد شهرٍ من بنائه واستقرار اللاجئة داخله.

إذن لن تكونَ أيُّ بهجةِ عرسٍ في ليلة العرس. وذلك العشاءُ الاستثنائي المكوّن من عدة خرفانٍ، وأرزٍّ، والذي ينتظر في خيمةٍ كبيرةٍ، أمام بيت شجر، في الحيّ الذي يسكنه، لن يرمى في البحر، أو سلال الزبالة، ولن تأكله الكلاب الضالة والقطط، كما قد يعتقد البعض، سيؤكل ويؤكل بضراوة، ولكن من دون تلك البهجة التي تساعد على هضمه.

ناهوم الإثيوبي، ليس له ذنبٌ في ما حدث، لتقبض أسنانُ الرئيس على حلمة أذنه وهي مهتاجة. الدرويش ليس له ذنبٌ ليطير

مبخره، وتطير طاقيته الخضراء، وتمتماته بعيداً، وتلك السائحة اليابانية العجوز، التي صادف وجودها في المكان، وستلتقط صوراً تذكارية لموقف باصات بدائيّ في لحظة سكونه، ولرجال مزركشين، وفوضويين، في بلدٍ موحلٍ من بلاد العالم الثالث، ليس لها ذنبٌ، بالتأكيد، لينتزع عباس الموت ساعتها الرادو، وخاتمها الذهبي، ويدسّ الحصيلة في جيبه، هكذا ببساطة، قبل أن ينتبه إليه البعض، ويلغون سرقته.

ولو انتظر قارئ عداداتِ الكهرباء الذي يحضر مرّة في الشهر لتوثيق الإسراف في استهلاك الكهرباء، دقائقَ فقط، لما كانت دراجته الحكومية، قد سحلت بهذا العنف.

اختفاء اللاجئة من المكان، ليس لغزاً على الإطلاق، ولن يكون لغزاً عصيّاً في أيّ لحظة. التي تركت استقرارها الموقت، واختفت في اللحظة الفاصلة بين كونها بائعة شاي عاديةً من نمط غير عادي، وكونها ربة بيت من نمط لا يعرف أحدٌ حتى الآن، إن كان سيكون عادياً أو غير عادي، لن يكون اختفاؤها لغزاً لو انتبه المتعاطون مع الأمر، إلى بعض التفاصيل الصغيرة المهمشة.

المشكلة هنا ليست في عقدةٍ منحطة، تخص التفكير عند المرأة، كما قد يتخيل عبد الباسط شجر بعقلية من تخطوا الستين، واعتادوا على تفكير المرأة القديمة، قبل أن تولد الحداثة، وتصبح المرأة نِدّاً للرجل في التفكير. وليست في الخوف من تجربةٍ عاطفيةٍ فقيرة، مع مسنٍّ ينتظر أن تكون حياته المتبقية معها كلها

صفراء مطعمة بالذهبي، كما قد يفكر ناهوم الإثيوبي، وكان لا يزال فخوراً بكلماتها التي وضعته في مصاف من تتمنى الفتيات زواجه، لكنه يفكر أيضاً أحياناً بطريقةٍ مؤسفةٍ حين يقول: هو فيلٌ أراد نملةً. وليس هرباً من العري الأمني، في ظل عدم وجود حماية، كما قد يفكر عبد القيوم، لو عرف، وهو في السجن، وانطلق من كونه حاميها الوحيد الغائب رغماً عنه، وقطعاً ليست انقلاباً عسكرياً هدفه السلطة، وهذا احتمالٌ لن يفكر فيه إلا ذلك الولد العشريني، مسعود، الذي يعمل مساعداً في باص سفري، ودخن سيجارتين من البانجو القوي، قبل أن ينضم إلى موكب البهجة المندحر، الذي كان في طريقه لعقد القران. وأيضاً لن تكون مسألة غموضٍ شرعي، في ما يختص بزواج الكتابيات، وهذه فكرة كانت ستدور في عقل أبي المقداد النور، قريب شجر العائد من الشيشان، لو أنهم سمحوا له بمرافقتهم، ولم يطرد علانيةً.

إنها الأحلام

نعم، الأحلام، ولا شيء أقل أو أكثر.

حين قاومت إعصار الحرب، ونفدت سليمةً، والتحقت بالوطن البديل، كان ثمة درجةٌ من درجات الحلم، أن يصبح وطناً بديلاً حقاً، وليس ظلاً معوجاً، تنهار تحته القيلولة.

وحين هبطت في موقف باصات السفر، في ذلك اليوم القاسي، الذي تحاول أن تنتزع منه الذكريات المرة، لتلقيها بعيداً، كلما استطاعت، وتعضّ على ما تبقى من ذكريات جيدة، بما فيها

سخاء عبد القيوم، ولهفته، وانشغاله بمحاولات رعايتها، كانت ثمة درجةٌ أخرى، من درجات الحلم، صعدت. كان ثمة نشاطٌ مثمرٌ، ومأوى، وعشاقٌ بلا حصر، ولعلّ الدرب يأتي بغريب ممتلئ كفاءة، لينتزعها، صاعداً بها درجةً أو درجتين أو ثلاثاً إلى القمة.

لكن هل الغرباء الممتلئون كفاءةً، يأتون من هذا الدرب عادة؟

وإن صادف وأتوا بالفعل، هل يسمحون لأعينهم أن ترتدي نظرات الهيام المحتمل، وهي تطالع صانعة شاي كادحة، في موقف باصات فوضوي، مهما تألق جمالها؟

هي ليست صانعة شاي على الإطلاق، ولا تذكر حتى أنها اهتمت بالشاي أصلاً في سنواتها السابقة، أو حتى كانت تشربه بانتظام. ولولا أن عبد القيوم، كبّلها بتلك الوظيفة من دون وظائف أخرى ربما خطرت بباله في ذلك الوقت، لما فكّرت فيها على الإطلاق، ولما التصق بها واحدٌ مثل عبد الباسط شجر، أو ناهوم، أو عباس سالم الملقب بالموت، لأنه عاد إلى الدنيا، ونعشه في الطريق إلى المقبرة.

كان عبد القيوم، جسراً من جسورٍ متعددة، كان لا بدّ أن يعبر بها الحلم، والآن فهمت بجلاءٍ، لماذا لم يكن يخطر ببالها، ساعة يخطر الأعزاء بالبال:

كان أبوها تسفاي مديتو، المدفون في قبرٍ بعيدٍ جداً، يخطر لأنّ آثار أصابعه على وجهها وجدائل شعرها لا تزال موجودة.

أمها هيلان القروية، المدفونة بقربه، تخطر، ذلك أن الأم حتى

لو رحلت وهي تلد طفلها، سيذكرها بكل عفويةٍ ونقاء، سيخترع لها وجهاً، يتذكرها به، يخترع لها لغةً مؤثرة، ومواقف أمّ، يعتبرها مواقفها.

إخوتها الثلاثة الذين لا تعرف إن كانوا أحياء أو موتى، يأتون دائماً، يغنون ويرقصون، ويلعبون الكرة والجمباز، كما كانوا يفعلون وهي معهم. وفي إحدى الليالي، جاء إلى الحلم نحاي علولو، مدرّس تنسيق الحدائق، في معهد ميكائيل عفرتو، حيث حصلت على شهادتها.

علولو علمها التنسيق، وفي الوقت نفسه، احتال على قلبها بطريقة أو بأخرى، واعتقله عدة أشهرٍ، في مغامرة حبٍّ، لم تكن منصفةً لها، وهي فتاةٌ غضةٌ بلا أفق يحب أو يكره، ومنصفةٌ له، لأنه قبّلها مئة مرةٍ، ولأنه لامس شعرها مئة مرةٍ، ولأنه افترى في تلك الأيام، وأضاف إلى طبخة الحب، بهارات من الغيرة، لم يكن من حقه إضافتها.

لكن علولو أيضاً، لم يكن سيئاً، ولم يكن متقدماً في السن لتبتئس من قبلاته، باعتبارها قبلاتِ شفتين يابستين وبلا طعم. كان في عشرينات العمر، وتلك الشعرات البيضاء التي نبتت في رأسه، ليست من كبر السن، ولكن من الخوف. فقد كان علولو يخاف سبعة أشياء بعينها، وتميز في الخوف منها، أهمها: السلطة، وعصير الأناناس ذو الرغوة الكثيفة، والطيور المهاجرة إلى بعيد، وأحمر الشفاه الموضوع بغموض عند بعض السيدات.

ذلك المساء، تملكها القرفُ كاملاً، أحسّت، ولأول مرّة، أن دور المعشوقة مملٌ ومؤلمٌ إلى أقصى حد، وتلك النظرات معظمها أظفار تهرش الجمال وتدميه، وتلك الاشتهاءات تحوّلها إلى طبق متبّل على مائدة جياع. كانت تصنع الشاي وتقدّمه، وتحسّ بأنهم يشربون أصابعها لا شايها، وحين أخذوا عبد القيوم، أو بتروه عن يومها، كان ذلك من منطلق جوع المكان، الذي أحسته أشد خطورةً، وعبد القيوم بين يدي العسكر.

عبد الباسط شجر، أرسل لها جزءاً من مهرها، وغبار عبد القيوم لا يزال يملأ الجو، ولم يختف بعد. أرسل أسورة وخاتماً، وجنيهاتٍ ليست كثيرة، لتعدّها مهراً حسّاساً وتنتشي، وحين أرادت أن تضحكَ أو تسخر من غبائه، فوجئت بابتهاجاتٍ، ومقدمات عرسٍ حقيقية، وبوجود شهودٍ، وخبّروها عن شيخٍ سيعقد القران.

هنا كان من الممكن أن تصرخ: لا! لكنها لم تفعل، وتعرف جيداً، أن لا اللاجئين تافهة جداً، بلا وزن ولا طموح أن تبتعد أكثر من بوصة عن الحلق الذي أطلقها. إنها اللا المهانة، كما أفهموها بمجرد أن فرّت عن أرضها، وعبرت الحدود إلى أرض بديلة.

في إحدى زياراتها المسروقة لحيّ المرابيع، حيث مواطنوها الغرباء، مع مواطني دولٍ أخرى، يأكلون البؤس، ويكتوون بالجمر، تعرّفت إلى امرأة سمراء ناعمة الوجه وفاتنةٍ إلى حدّ ما، في بيتٍ تسكنه عائلة تاجر مشغولاتٍ ذهبية، اسمه عتام جمري، كان قد فقد في الحرب، ولم يعرف مصيره. أما عائلته فقد فرّت إلى هنا،

وتعيش على الهبات، وقد صادقت هي هذه العائلة.

كانت العائلة مكوّنةً من أمّ في منتصف العمر، وفتاتين في آخر سن المراهقة، تبدوان كزهرتين لهما أريج متميز.

قيل لها: هذه الخالة مستورة، صديقة العائلة التي كسبناها هنا، إنها تاجرة أغراض نسائية رائعة، تأتي من مكانٍ بعيدٍ، لتبيع أغراضها لسكان الحي، وتمنحنا الهدايا باستمرار.

وقيل لمستورة: هذه حبيبتنا أبيا تسفاي، منسقة الحدائق، التي تصرّ على العمل بائعة شاي في منتجع الساحرات.

وضحكوا جميعاً.

كانت إحدى الفتاتين مبتهجةً للغاية، ترتدي ثوباً أحمر من قماشٍ متوسط القيمة، وصندلاً من الجلد أحمر أيضاً، وعدة أساور من قصديرٍ لامعٍ على اليدين، وقلادةً رقيقةً على العنق تبدو من الذهب، لكنها ليست من الذهب، ووضّحت وهي تبتسم بإشراق، أن كل ذلك هديةٌ من الخالة مستورة.

كانت ثمة حقيبة سوداء من القماش، متوسطة السعة، موضوعة على طاولة قريبة، تناولتها الخالة، فتحتها، وأخرجت عدة فساتين بألوانٍ مختلفة، وأحذيةً، وأطواقاً للشعر، وحليّاً مقلدة، نثرتها على ملاءةٍ مفروشةٍ في الأرض أمامها، وهي تطالع أبيا، كأنها تؤكد لها على حقيقة كونها تاجرة أغراض نسائية فعلاً.

أبيا جميلة جداً، وجمالها بالطبع لا يمكن أن ينجو من الدخول، مبجلاً ومحاطاً بالورد، إلى تفكير واحدةٍ مثل مستورة، تعرف

تماماً أن اللجوء والتشرد بعيداً عن الوطن، للنساء الفاتنات، يمكن أن يحقن بيتها الراقي بدماءٍ جديدة، تحتاجها للبقاء في الصدارة كتاجرة متعة حسنةِ السمعة، لا تقدم إلا ما هو جديدٌ، ونظيف.

لقد امتلأت أفكارها بقياسات الفتاتين المراهقتين، ابنتي تاجر المشغولات الذهبية المفقود، مذ رأتهما للمرة الأولى مصادفةً في أحد أزقة حيّ المرابيع، قبل عدة أشهر. سعت إلى العائلة، وتغلغلت في لحمها، ولا تزال إلى الآن. وبرغم تغلغلها العميق الباطش، لم تعثر على مدخلٍ يجرّ تلك الفتنة العظيمة، إلى مقبرةِ السوء في حيّ الصهاريج... فكّرت كثيراً، وضعت قدور الإغواء على النار، ولم ينضج قدرٌ واحدٌ، والآن توسعت في منح الهدايا، واثقةً أن الوقت قد اقترب.

اليوم ارتبكت بظهور أبيا، المرأة الجميلة الناضجة، الكفيلة بالبقاء سلعةً رائجة عندها لسنوات، والتي لن يكون مدخلها سهلاً بالتأكيد، ولكنها ستحاول إيجاده بجانب مدخلي المراهقتين، وفاتَها أن تفكر في صنعة بيع الشاي التي تمتهنها أبيا، وأنها لم تكن لتصبح صنعةً لها لولا أن مدخل الخطيئة عندها مغلقٌ بشدة، على الأقل حتى الآن، ولا يعرف أحدٌ إن كان سيفتح أو لا يفتح ذات يوم...

ارتبكت الخالة بجلاءٍ، عرقت وجففت العرق بمنديلٍ وردي، نظيفٍ وناعم، وحريري، أخرجته من حقيبة يدها الصغيرة. ابتدأت تتحدث عن أمها الغينية التي كانت مؤلفة روايات عاطفية مهمة، لم

تنشر أي رواية مع الأسف، وضاعت مخطوطاتها. عن أبيها الذي كان أطول من النخلة، لكنه يملك قلب طفل. عرجت على أصباغ الشعر المختلفة، وكيف عثرت على اللون المناسب لشعرها، وهو البنيّ، بلون التراب، وأن لكل شعرٍ لونه الذى يناسبه. مثلاً أبا، لا لون يناسب شعرها أكثر من الأسود الداكن، إنها رائعةٌ به، رائعة حقاً.

رفعت عدة أساور فضية، اقتربت بها من معصمي أبا، وأدخلتها، وأرادت أن تتركها حيث التصقت، لكن اللاجئة انتزعتها بقسوة، وأعادتها لها. جمالها ليس غبياً مؤكداً، ومهنة تاجرة الأغراض النسائية لم تبد لها تشبه الخالة من قريبٍ أو بعيد. كانت أكثر نظافةً، ونعومةً من تاجرة كادحة، تتنقل من بيتٍ إلى بيت، وفي حيٍّ لا علاقة له بالشراء من قريبٍ أو بعيد. أكيد لها نشاط آخر. عضت على كلمة آخر، مضغتها جيداً، ابتلعتها واطمأنت.

حين تذهب الخالة، ستحاول تحذير عائلة الصائغ المفقود من ذلك الهواء الفاسد الذي يتغلغل في بيتها، لكن في النهاية لن يكون ذنبها إن لم يستمع إليها أحدٌ، في زمن كله ضياعٌ كهذا. لكن ما انتوته لم يحدث في ذلك اليوم البعيد، ذهبت الخالة بعد جلوسٍ طويل، ولم تقل هي شيئاً، خافت أن تقول، استحت أن تقول، ولكنها ستحاول في أقرب فرصة، وربما لا تستطيع في المرة القادمة أيضاً.

الآن خرجت من منتجع الساحرات، مسرعةً، بعدما ساعدها

عددٌ من مواطنيها كانوا قد لمّوهم من الوهم، والأحلام، والزوايا الخربة في الحياة، وجاءوا بهم لإعالة العرس، ومنحه صيغته العشائرية المطلوبة. ساعدوها في وضع أغراضها في الكشك بعشوائية، ولمِّ بعض ثيابها القليلة في حقيبة، وإغلاق المكان بقفلٍ متينٍ، ثم سرقتها بحقيبتها إلى الطريق العام، حيث ستذهب إلى المرابيع، حيِّ اللجوء المتوعك بأمثالها ممن شتمتهم الحرب في وجوههم، ومن جلدتهم في سيقانهم، ومن صيّرتهم عبيداً للشفقة، يتوسلونها في كل حين.

لم يكن أولئك الذين ساعدوها في الهرب من المكان، أصحاب مصلحة من أيّ نوع، والعشاء الذي كان سيقدمه لهم شجر، في بيته، مكافأةً، يمكنهم سرقته من أيّ مطعم، أو بيتٍ بلا رقابة، إن أرادوا، ويمكنهم أيضاً نسيانه، كأن لا توجَد وجبةٌ عشاء أصلاً في سجلِّ الوجبات. انحازوا لمواطنتهم، وأخذوها إلى حيث يمكنها أن تستردَّ نفَسين أو ثلاثة، من أنفاسها الهاربة، وتفكر في معضلتها.

كان بعضهم يعرف عبد القيوم دليل جيداً، واستفسر عن سبب اختفائه، وعرف، وبعضهم لا يعرفه، وتمنى لو كان قد عرفه، بعدما استمع لسيرته الذاتية الضحلة في معظم فقراتها، تروى بلسان أبيا، وألسنة الذين عرفوه، ذلك أنّ لصاً قديماً، عضته الكلاب البوليسية الألمانية، في تجاربها الأولى، وتحول إلى عاشقٍ نزيه إلى هذا الحد، كان جديراً إن لم يكن بالاحترام، فبشيءٍ قريبٍ من الاحترام.

-١١-

في حيّ المرابيع الذي يقع في الطرف الشرقيّ من المدينة، محاطاً بغابات المسكيت المالحة، وحكايات الجن الذي يتناسل في تلك الغابات، ويغزو المدينة بأكملها في الليالي المظلمة، وفي بيت عائلة جمري، تاجر المشغولات الذهبية المفقود، كانت أبيا موضع ترحيبٍ كبيرٍ، وممتدٍ:

- حبيبتنا أبيا... حبيبتنا هنا... ماذا حدث؟

وتحكي بسخاءٍ عما حدث: عن المكان حين يصبح أظفاراً تخربش، والناس حين تموت بداخلهم أرواحهم... والأنوثة حين تصبح ألماً... والشقاء الغبي، حين يصبح مصيراً.

- يا ربي يا ربي... رحماك ربي...

رفعن أيديهنّ، تمتمن بالصلوات: يا ربي... يا رب السماوات والأرض. اللهم اخلق لي قلباً نقياً، عفيفاً، طاهراً، بسيطاً، لا يفكر بالشر، ولا تأوي إليه الشهوات. قلباً نقياً، لا يعرف الظلم ولا يغتاب الآخرين... آمين.

كانت فرحتها عظيمةً حين سُميت قصتها مع العريس المسنّ البائس عبد الباسط شجر، فرار الملكة، ورُشحت لتكون قصة الموسم بواسطة إحدى الفتاتين المراهقتين، وكانت مغرمةً بالمسابقات المطروحة في أيّ شأن، حتى لو كان ترشيح نملة في مسابقة لإجادة تسريحة الشعر، وشاركت في عدد منها حين كانت في الوطن الأم.

كانت فرحتها أعظم حين استخرجت الفتاة الأخرى، قملةً شبعانةً من ثنايا شعرها الطويل، الغارق في الودق[1]، كانت ترافقها في رحلة البحث عن الوطن البديل:

– قملة... قملة...

صرخت أبيا... وصفقت بحماسة...

– قملة من الوطن، قملة من الوطن... يا إلهي.

وشاركتها الأسرة حماستها بالتصفيق أيضاً وبالوعد الأكيد، بمواصلة النضال الوطني، حتى يستعاد الوطن كاملاً من جشع الغاصبين، ولم يكن هناك في حيّ المرابيع الراقد في غيبوبةٍ كبرى، نضالٌ وطني أو غير وطني، بأيّ حالٍ من الأحوال.

فرحتها أعظم وأعظم، حين أرتها الأم صوراً واضحة ملتقطة من شارع كمشتاتو النظيف، وسط العاصمة أسمرا، استطاعت إخراجها من النار حين فرّت.

– يا ويلي... متى سنعود؟

---

[1] مرهم يوضع على الشعر، من شحم الحيوانات.

في البيت الضيق المشيّد عشوائياً من الخشب والصفيح، وبعض مخلفات الحيوانات، وبأيدي عمالٍ لم يكونوا مهرة، وأصلاً لم يكونوا عمالاً في وطنهم، وفي ركنٍ تفوح منه رائحة جرذانٍ ميتة، أحسّت أبا بحاجتها إلى البكاء، إلى غسل سخافات النعيم النسبيّ الذي عاشته عدة أشهر في منتجع الساحرات، تحت حماية عبد القيوم، والبدء من جديدٍ، لاجئةً مشردةً، تبحث عن ظلٍّ في وطنٍ أقدمت على التسلل إليه.

كانت تحقق أمنيةً غالية لبائعات الشاي المسنات، حواء وسعيدة وسيدة الجيل، من دون أن تحس، أو تخطط. ولطالما تمنّينها مبتدئةً، تحيط بها الضواري وتستهلكها، قبل أن تمنح نعمة أن تستقر في كشك، ليس في منتجع الساحرات، ذلك المكان المرموق، بعدما أصبح موقفاً لباصات السفر، ولكن في محطة أخرى، كئيبةٍ وبلا ضجيج، ولا أيّ احتمال أن يخرج منها الباعة بقرش.

ترى هل يجرؤ أحدٌ على دكّ كشكها الأزرق؟

هل تزيله السلطة مثلما منحته؟ وهل يحرّض عبد الباسط المسؤولين الحكوميين ضده حتى يتولوا أمر إبادته، وإن عادت للموقف تحت أيّ سبب، ستعود إلى عراء؟

كان عبد القيوم، للأسف الشديد، محجوزاً في قبضة العدالة، لسببٍ لا تعرفه تماماً، لكنها تعرف أنه قد اختُرع، وتمّ تزيينه ليكون سبباً، ولولا ذلك لما كانت الآن تبكي، وتغسل روحها من نعيم بدائي، عاشته برهةً وانقضى.

لا تستطيع خيانة عبد القيوم برغم أنه ليس زوجاً، وليس حبيباً كاملاً، وإنما جسرٌ في طريق الأحلام لا بّد من تجاوزه ذات يوم، ولن تتزوج من شجر، حتى لو قلدها الجواهر، وأسكنها ذلك البيت الأخضر الوسيم المطلّ على البحر، وقال لها عبد القيوم وهما يمرّان تحت هيكله، ذات يوم، إن اسمه بيت الحوريات، ويملكه واحدٌ من مهرّبي البحر.

مؤكد أن عبد القيوم، لن يظلّ حبيساً في السجن إلى الأبد، من المؤكد أنه سيخرج في أحد الأيام، وسيفتقدها وسيبحث عنها، وقد يمزقها إن وجدها ضالةً، وبعيدةً عن السقف الذي أنشأه لها، وكان يقسم كلما جلس أمامها على أبسطة المخمل، أنه لن يتركها تضلّ أبداً.

بكت كثيراً، وتألمت كثيراً، وغسلت جزءاً من خوفها، وعادت لتجاور الأسرة، في صالة البيت الضيقة. كانوا ملتمّين حول جهاز تلفزيون صغيرٍ، مربوطٍ إلى بطارية ضخمة، في حيٍّ بلا كهرباء، ولا احتمال أن يمتلك الكهرباء، وكانت تشاهده لأول مرة، وتذكرت مستورة على الفور: سألت:

– هل ما زالت الخالة مستورة، تزوركم؟

– نعم. تأتي كثيراً، ودائماً تحمل الهدايا الجميلة، وقد سألت عنك منذ يومين، وأيضاً دعتنا لزيارتها في بيتها وقضاء عدة أيام معها، وستأتي لاصطحابنا غداً صباحاً، ستذهبين معنا يا أبيا، الخالة تحبك.

ردت إحدى المراهقتين، مانحة قبلةً في الهواء لأبا، ورفعت يدها اليسرى، وكانت ثمة ساعة سوداء أنيقة، ذات إطار ذهبيّ، تحيط بمعصمها، بينما رفعت يد أختها وبانت ساعة أخرى ذهبية بالكامل، وأكثر أناقة. وقبل أن تتسع ابتسامة الأم تماماً، وربما تعرض هي أيضاً ما غنمته من سخاء الخالة، صرخت أبا: لا... لا...

وبكامل ما تجيده من انفعالاتٍ، بعضها ولد معها، وبعضها تعلمته في سكة العمر، وسكة الهرب من النار إلى النار، وضّحت حقيقة مستورة، وما سمعته في حقّها على لسان عبد القيوم، حين أخبرته ذات يومٍ كاذبةً أنها شاهدتها مصادفةً، وتعرفت إليها في موقف السفر، وبدت لها امرأةً راقية، وتريد أن تعرف حقيقتها. توسّلت إلى الأم، أن تسأل بنفسها، لتعرف أنّ مجيء الخالة إلى بيتها بكل تلك العطاءات، ليس عشوائياً، ولا حبّاً، ولكن من أجل الصيد... وقطعاً يوجد صف من الرجال بمختلف أعمارهم وتوجهاتهم، يتململون الآن في قائمة انتظارٍ من إعداد الخالة.

- لديك زهرتان جميلتان أختي ماريان... لديك زهرتان... وللخالة زبائن يحبون قتل الزهور.

وبكت.

كانت المحبة التي تكرسها الأسرة لبائعة الشاي الصبية، لدرجة أن تخاطَب دائماً بالحبيبة أبا، قد تلاشت كلياً في ذلك الليل، تلاشت بجلافةٍ، لدرجة أن أبا طردت بجفاءٍ مع كلِّ ما يمكن أن

يمتّ إليها بصلة، مثل شامبو البانتين الذي تستخدمه للوقاية من قشرة الرأس، ووضعته في حمام البيت الفقير، وصابونة فا التي جلبتها أيضاً، وبعض أكواب الزجاج، كلّ ذلك ألقي خلفها إلى الطريق.

كان من الواضح أن الخالة هنا في هذا البيت، وقطعاً في بيوتٍ أخرى تماثله في توافر خامات اللعنة، خطٌّ أحمرُ، أو أكثر من ذلك، ومهما كانت رداءة سمعتها، ومهما كانت خطورتها على زهرتين فقيرتين في الوقت الحاضر، مؤكد ستظل راعيةً للأسرة.

لا أحد يعرف بماذا كانت تفكر الأم التي لا تبدو عليها علامات الفزع، وما هي خطتها للحفاظ على بيتها نظيفاً، مع وجود هواءٍ ملوّثٍ يدخله. لا أحد يعرف كيف ستنتهي الحكاية، أو أصلاً كيف بدأت الحكاية، ومن غرس الخالة التي تتمتع بسمعة نظيفة في حيّ الصهاريج، في بيتٍ عشوائي، تسكنه أسرة تاجر مشغولاتٍ ذهبية فقد في الحرب.

كانت أبيا تفكر بانزعاجٍ، وهي واقفة وحدها في مواجهة الليل، وما يمكن أن يفعله بها، في حيٍّ معظم سكانه، إن لم يكن كلهم، إما بؤساء حالمون بمجد قريب، وإما بؤساء حصلوا على المجد فعلاً، داخل أدمغةٍ ما عادت تفرّق بين الوهم، والوهم الأشد.

كانت حقيبتها القماشية، التي تحتوي على أغراضها البسيطة، من قمصانٍ، وتنانيرَ، ومستلزماتٍ تخص المرأة، معلقةً على كتفها، ونقودها التي حصدتها من خدمة الشاي تلك الأشهر الماضية،

إضافة إلى أساور ذهبية اشترتها، ملفوفةً داخل صرّةٍ، وضعتها بين ثدييها، وتتحسسها كلّ لحظة للتأكد من وجودها.

كانت قبل تسربها من منتجع الساحرات، قد سلمت المهر الذي أرسله شجر، لواحدٍ تعرفه، وتعرف أنه سيعيده. لم ترد أن تبدو فارّةً بغنيمةٍ، بالرغم من أنها لم تكن غنيمةً فذة.

كانت تفكر بعمقٍ، ولن تحاول أن تفسد عتمة اللحظة بالتفاؤل، كأن تدّعي مثلاً لنفسها، أنّ إحساسها لم يكن صادقاً، وعبد القيوم لم يكن صادقاً في تأكيده لظنّ الإحساس، وأنّ الخالة مستورة بالفعل تاجرة أغراضٍ نسائية، لا علاقة لها بالشبهات. كأن تدّعي ولنفسها أيضاً، أنّ حيّ المرابيع المعروف بنزاهته في ضخّ الإجرام، ليس كذلك، لكنه آمنٌ، ومراقبٌ بشدة من قبل السلطة، وطحالبُ الإجرام التي قد تنمو فيه لأيّ سببٍ، تتمّ إبادتها فوراً، وقبل أن تتبرعم. وكأن تدّعي للمرة الأولى في حياتها، بأنها امرأةٌ قبيحة، تافهة، سيئة التكوين، وسيعتبرها الرجال، تلّاً من تلال القمامة، ويبصقون عليها، حين يمرون بقربها.

كانت تسير على الطين، على الحصى، على الأوساخ المهيمنة، ولا تعرف إن كانت ستحتمل السير الضالّ حتى النهاية، أم تسقط، إن كانت فريسةً في تلك اللحظة، أم صياداً للحظةٍ قادمة أرقى وأجمل.

فجأةً تذكرت مفسّر الأحلام الزائف قمزحاي تيرسو، ذلك الذي قُدّم لها ذات يوم كعشيق أو زوج محتمل، وسبّته حين

اكتشفت زيفه، وأقسم أن يستبدل سبابها بالمتعة في يوم من الأيام، وكانت قد نسيت أمره، ولم تتخيله كابوساً محتملاً في مثل هذا الليل الموحش، الذي جاء مصادفةً، ومن دون أيّ تخطيط... نعم، حين فرّت من منتجع الساحرات، كانت تفرّ إلى سند، ولم تكن تعلم أنها تفرّ إلى الليل وحده. بالطبع كان ثمة معارفُ كثرٌ هنا، لكن لا أحد منهم يعادل أسرة تاجر المشغولات المفقود في الودّ الذي فقد الآن، ولا أحد غير هذه الأسرة بالذات، يملك ظلاً يمكن أن يستر واحدةً فارّةً من زواج قسري، أو يملك لقمة تسدُّ حنك الجوع.

كان معظم سكان الحي أثرياءَ بدموعهم، يأكلون ويشربون دموعاً ولا تنضب.

ارتعدت قليلاً، وأرادت أن تكفّ عن الرعدة، حفاظاً على طاقة المشي، حتى تعلق بجسر يعبر بها إلى البرّ، أن تصادف أحد إخوتها الضائعين، مثلاً، أن يكون عبد القيوم، طليقاً، ويبحث عنها مثلاً... أن... أن...، وتلعثم التفكير في ذهنها. لقد كان ثمة هيكلٌ نحيل، يدخن ببطء، يمشي بجانبها، وإحدى يديه في جيب سرواله. ضحك قليلاً ثم صمت، ولولا الظلام الذي لا تنيره سوى أضواء الفوانيس الشاحبة، أمام البيوت لكانت قد رأت أسنانه عادية جداً، فقط سيصورها الخيال المضطرب، أسنانَ ذئب.

كانت أنفاسها قد اشتعلت بشدّة، وقمزحاي تيرسو يسير

بجانبها، يدخن أو يبصق، أو يخرج ريشة ديكٍ رقيقةً من جيبه، يحكّ بها أذنه، ثم يعيدها. لم يلمسها قط، ولم يحاول أبداً أن يعترض اتجاهها، أو ينظر بافتتان إلى وجهها الفاتن برغم الخوف والعتمة، وأيضاً لم يقل لها استرخي، وواضحٌ أنه انتبه إلى عدم استرخائها.

كان الليل أميناً في بثه للظلام، لكن الفوانيس الشاحبة في قلب بيوت الخشب والصفيح، وتلك المشتتة في الشوارع، ويلتمّ البعض من حولها، كانت تصارع أمانته، وترشوه بشيءٍ من الضوء.

كان الإحساس المبالغ في رهافته لدى اللاجئة، كافياً لتحسّ أنّ جيوشاً من الوساوس عالقةٌ بسرّتها وأردافها، وثمة عرقٌ غير عادي، نزّ من رأسها، ومن أماكنها السرية حتى.

فكرت أن تصرخ، وتذكرت أن الصراخ ردٌّ فعلٍ لا إراديّ عند الخطر، ولو كان ثمة خطر حقيقي، لكانت قد صرخت، بلا أيّ تكلف أو طاقة تبذلها.

في أيام حب علولو، مدرّس تنسيق الحدائق، لها، وفي إحدى محاولاته الجادة ليصير خطراً عليها، بعد أشهرٍ من الرومانسية الخلاقة، حين جرّها إلى ركنٍ معتمٍ في معهد ميخائيل عفرتو، ومدّ يده يتحسس أماكن ممنوعة في جسدها الفاتن، صرخت، وجاء من يتفقد أسباب صرختها. كان ردَّ فعلٍ حقيقيّاً، من خطرٍ بدأ ناعماً ولو تركته، لبرزت خشونته.

أما الآن، فلماذا تصرخ؟

ستجرّب أن تجعل ردّ الفعل إرادياً وتصرخ. ملأت حلقها بكثير من لقم الانفعالات، وصرخت بالفعل، لكنها لم تر حشوداً التمّت، ولم تسمع أصوات خطواتٍ تركض، ولا تزحزح قمزحاي عن جانبها شبراً، كان يخطو بنفس إيقاع خطواتها، يدخن، أو يحك أذنه بريشة الديك الرقيقة. واكتشفت بعدما بلعت ريقها، أن الصرخة كانت عالقة في الحلق، واختطفها الريق حين ابتلعته.

لا تدري أببا كم ساعةً مشت في ليل حيّ المرابيع القاحل، يرافقها قمزحاي تيرسو بصمته المؤلم لدرجةٍ تمنت فيها لو تحدّث فجأةً، لو أمسكها بخشونة، ضاغطاً إياها في صدره، ولو قبلها عنوة، باشتهاءٍ مجنون، ولو صيّرها ضحية في بداية سلم الصعود نحو الاستقرار. فقط لتحسّ بأنها برفقة أحد...

همست: قمزحاي.

ولم تتلق أيّ ردّ.

همست: مفسر الأحلام... لديّ حلم جديد.

ولم تتلق أيّ ردّ.

-١٢-

لم يكن قد مضى زمنٌ طويل منذ أن استقر عبد القيوم بالسجن الاحتياطي، والتحق بصداقة طارئة مع اللاجئ الإريتري قمزحاي تيرسو، ذلك الذي لم يكن منتجاً سينمائياً هنا، ولا مفسر أحلام هناك، وقد لا يكون اسمه قمزحاي تيرسو على الإطلاق.

وبالرغم من وجود شكوكٍ مزمنة يختص بها اللصوص، وسالكو سكك الإجرام، تجاه أيّ شيءٍ عادةً، لدرجة أن يشكّوا في تنفسهم الشخصي فيظنوه تنفس شخص آخر، وفي نبضات قلوبهم فيظنوها نبضات جار أو صديق، وتوجهت تلك الشكوك بعمق تجاه الرجل النحيل، الرمادي الشعر، الذي يدخن روثمان كينغ سايز، بلا أيّ وجه حقّ وهو معدم، إلا أنه اندلق يحكي له قصة، أقل ما يمكن وصفها به، أنها ليست القصة المناسبة لتروى بلسان لصٍ، سجينٍ، ولو سمعت بها الفتاة الضابط، قائدُ السجن الاحتياطي الموقت بمناسبة عيد السجين، لربما اندهشت بالرغم من تدريبها الذي نزعت منه الدهشة غالباً.

لم يكن قمزحاي قد صادف عاشقاً بهذه المواصفات من قبل، مثلما لم يصادف عبد القيوم منتجاً سينمائياً بمواصفاته هو. كان واجماً في البداية، يدخل يده كل لحظة وأخرى في ثنايا شعره الرمادي الكثيف نسبياً، يستلّ قملة، يسحلها بين أصابعه.

استمع بتراخٍ وتصنّعٍ مدهش، ونظراتٍ تتجول في الزوايا المعتمة والمضيئة لعنبرِ الحجزِ المكتظ، ترصد زملاء التعاسة المفترضين، ثم تعود لشفتي السارد، تشجعهما على الاستمرار.

قمزحاي لم يكن عبقرياً، ولم يوصف ذات يوم في أيّ مجالٍ غَشّ فيه، أو انتحل مناهجه، وطبقها بطريقته، بأنه مفرط الذكاء، لكن التعرف إلى المعشوقة، في نصٍ يسرده عاشق، في عتمة السجن الاحتياطي، من دون ذكرٍ للأسماء، أو الوظائف، لم يكن يحتاج إلىَ عبقرية أو ذكاء مفرط.

حين وصف السارد، الذي هو عبد القيوم، وجه اللاجئة بما فيه من شروق وغروب وإدهاش ولعنة جمالية، هتف قمزحاي في سرّه، لكن ظلالاً من الهتاف ارتسمت في عينيه المطفأتين:

كأنها بائعة الشاي الإريترية، في منتجع الساحرات... يا إلهي.

وحين انحدر السارد الذي هو عبد القيوم، إلى جسدها، وذكر عبارات مثل: الملبن والحرير، وأبيض الثلج، وريش النعام، كأوصاف للجسد والملمس ولون البشرة، هتف قمزحاي في سرّه، وهذه المرّة كان الهتاف بأكمله، مؤطراً في عينيه، وطرف لسانه:

– اللعنة إنها أببا تسفاي، إنها هي التي جلست معه ذات يوم،

على دكة موحلة في حيّ المرابيع، لتتقصى ثراءه الزائف، وتمتحن قدرته على تفسير الأحلام، بحلمٍ صعب، وتهزمه. يا إلهي... إنها هي.

كان عبد القيوم قد انتهى من سرده، واختتمه بأن أقسم على توبته، وأنه لن يعود إلى السرقة مرةً أخرى، حتى لو سنت لها قوانين جديدة، تمنحها الشرعية، وتشرح للصوص، طرق السطو الحديثة. وودّ لو أيّده قمزحاي بهزّةٍ من رأسه، أو غمزةٍ من عينه، أو شدًّ على يده البذيئة الخشنة، بيده المهذبة المعَدة جيداً لمصافحة الناس، وأقسم معه أن يتوب هو الآخر.

لكن قمزحاي، لم يكن معه. كان في دركٍ بعيد من الفوضى العقلية والجسدية، عينه اليمنى ابتدأت تحكه بجنون، كتفه الأيسر كأنه تورم، حذاؤه القديم كأنه ضاق على قدميه، ونبتت في ذهنه فكرة مرعبة، أن ينتزع لسانه من حلقه، يستخدمه في كتابة تذكار على الحائط.

هل هي بوادر أزمة قلبية؟

لا، لا، ليست بوادر أزمة قلبية.

هل هي بوادر انفصام شخصية؟

لا، لا، ليست كذلك، لكنها بوادر شيءٍ لم يستطع معرفته.

أدخل يده في جيب قميصه يبحث عن سيجارة كما يبدو، لكنه لم يعثر على واحدة. طاف بعينيه في زملائه الصامتين المنشغلين بأفكارهم، فلم يلمح فيهم مدخناً أو واحداً يمكنه أن يدخن. مذ

يده لعبد القيوم، ولم يكن يملك سوى ربع سيجارة يابس، ومن تبغ منحط للغاية، موضوع خلف أذنه، وربما ربعين آخرين يخبئهما في جيب سرواله. مدّها ناحية الباب، وكانت مصادفة غريبة أن الباب فتح في تلك اللحظة، محدثاً صريراً أخاذاً يعشقه السجناء، ويتوقعون وراءه خيراً، كلما سمعوه، ويترقبونه أيضاً، وكأنّ إدارات السجون، تعرف، وتصرّ على ترك الأبواب تصرخ هكذا، رفعاً للمعنويات. كان ثمة صوتٌ عسكري يصيح:

- أبرهام لولي.

وفي اللحظة التي اتجهت فيها عينا عبد القيوم إلى منتصف العتمة، والزوايا البعيدة، لمعرفة لولي الذي سيخرج الآن إلى الحرية، أو السجن الكبير، كان لولي بجانبه، إنه قمزحاي تيرسو، الذي هبّ نشطاً، نفض سرواله من التراب، واتجه إلى الباب، كانت يده قد ارتفعت في وجه عبد القيوم، لكنها لم تلتقط يده، تصافحها.

- إنه أنا.

- وقمزحاي؟

- إنه اسم المنتج السينمائي.

- وأبرهام؟

- اسم المتسوّل الذي اعتقل وهو في ركنٍ يتسوّل فيه الكبار.

إلى اللقاء.

كان ثمة ضوءٌ لا بأس به، يتسرب من الباب المفتوح، وكان

اللاجئ النحيل، رماديّ الشعر، يمشي ببطء ولكن بثقة نادرة. كان سرواله يسع هيكلي رجلين بالغين، بكل ارتياح، وحذاؤه قديماً فعلاً، ويبدو ضيقاً على قدميه، وتذكر عبد القيوم، أنه سرق حذاء يشبهه، من أمام مسجد، في بدايات ظهور موهبته كلص. ومن المؤكد أن لا أحد سيصدق أنه كان منتجاً حتى لتلك الأفلام التسجيلية المغرقة في الواقعية، والتي لا تحتاج إلا إلى التسكع في الشوارع، ومصادقة المتشردين. ولو قيل لعبد القيوم، إن السامع المندهش لما رواه الآن في طريقه لموقف باصات السفر، ليلتحق بمعشوقته الجميلة، ويربطها إلى قيده بأيّ وسيلة، لربما أسرع إليه، اغتال ثقته المفرطة التي يمشي بها للحرية، وجرّه إلى معركة تنتهي به سجيناً هنا مرّةً أخرى.

لم يكن قمزحاي تيرسو، أو أبرهام لولي، في الحقيقة متهماً بالتسول في ركن يملكه متسولون آخرون راقون، فلم يكن ثمة قانونٌ يملّك المتسولين الأركان، وبالطبع لا يوجد أيّ رقيٍّ في صنعة التسول، ليمتهنها الكبار.

الذي حدث أن قمزحاي، وفي لحظة عمى، أو لحظة عدم تفريقٍ غريبة بين كونه لاجئاً متشرداً، وشخصاً يمكنه أن ينال احتراماً ما، قام بتفصيل ملابس جديدة لدى خياط معروف، من دون أن يملك تكلفتها، وأصبح يحوم حولها، يشاهدها معلقة عند الخياط ولا يجرؤ على دخول المحل، إلى أن اقتنصه الخياط ذات يوم، وساقه إلى الشرطة، حيث وضع في السجن الاحتياطي، لحين محاكمته،

ثم عفا عنه حين عثر على مشترٍ لثيابه المفصلة، وخرج.

لم يكن سجن الاحتياط، يبعد كثيراً عن منتجع الساحرات، حيث موقف باصات السفر، وقطع قمزحاي، أو أبرهام لولي، أو أيّ هوية أخرى، المسافة في أقلّ من عشرين دقيقة، تخللتها عدة وقفاتٍ وتنهدات، أمام مطاعم شعبية، لممارسة لذة تأمل الأطعمة، وهي مادة تربوية خاصة، لم تدخل مناهج التعليم بعد، ويتوارث تعلمها اللاجئون، وأبناءُ الطبقات الفقيرة، ويحتاجون إليها كثيراً في حياتهم العملية.

كان لكل صنفٍ من صنوف الطعام، محاورُ خاصة، ينبغي اتباعها للوصول إلى حالة النشوة الكبرى. مثلا الشاورما التي اختار قمزحاي أن يتناولها نظرياً الآن: يتمّ تأملها أولاً في الخيال، كدجاجة كاملة من النوع المهجن، برأسها وجناحيها، وتقبلها لغزل الديك مهما كان سخفه، وممارسات يومها الأخرى، المعروفة في حظائر الدجاج. أو خروف حيّ سمين، يرعى، أو عجل من تلك التي تُربّى في مراعٍ خاصة، من أجل التصدير. الخطوة الثانية: تخيّل الذبح والسلخ، وتنقية اللحم المناسب، وتكديسه بشكلٍ مخروطيّ يدور حول النار، ويقص منه البائع ما نضج، بسكين مرهفة. وحين يصل المتأمل إلى الواقع، حيث اللحم الناضج فعلاً، مكدّس أمامه، داخل شطائر من الخبز الساخن، يكون قد امتلأ، وتجشأ، ويبحث عن سيجارة، أو زجاجة كولا، من أجل الهضم، وربما تثقل رأسه، ويتكئ على حائط في قيلولة سريعة...

قمزحاي، وأمام محل الشاورما، وفي أقلّ من خمس دقائق، كان يتجشأ، ويتثاءب، واستلف سيجارة من شخص عابر، وتدحرج متجهاً إلى موقف السفر.

قمزحاي تيرسو، أو أبرهام لولي، أو أيّاً كان اسمه وكانت هويته، لم يكن مهتماً بأبا كامرأة عالية القيمة الجمالية، ويمكن ضمها وتقبيلها، واتخاذها ملكة للقلب، يغشاها كلما تعب.

كان قد اهتم بها كصانعة شاي تملك مكاناً جيداً في وسط المدينة. لا يهمّ كيف تصنع شايها، ولا من يستهلكه، وهل هو شاي طيب، ومتقن، أم مجرد شاي والسلام. كان بحاجة لامرأة ذات دخل يومي منتظم، ومستعد لتبذير ذلك الدخل بانتظام، وتعويضها بادعاء الحب، وبلقاءات حميمة، قطعاً تحتاج إليها. وحين قدمت له أبا في حي المرابيع في ذلك اليوم، بوصفها بائعة شاي في موقع ضاج، ومزدحم، تمنى لو انتقل إلى رضاها فوراً، وبالتالي إلى قسمة إيرادها بطريقةٍ سلسة. وكان قد فكر جدياً في تطويرها إلى صاحبة كافتيريا، وتطوير استغلاله لها إلى نواحٍ كثيرة، وفكر أيضا في إمكانية أن يؤسس بها مقهى للحزن، يغشاه المحبطون والحزانى ليبكوا ويشربوا الشاي المر كما يحدث في العزاءات. كانت عيناها كبيرتين، وجديرتين بإنتاج دموع كثيرة، من المفترض أن تؤازر بها زبائنها، إن نجح المشروع.

ابتسم بكآبةٍ، وهو يطالع الكشك الأزرق من بعيدٍ، ويفكر في حيلةٍ جديدة، يعتذر بها للاجئة، ويقدم بها نفسه من جديد. مفسر

الأحلام، كشفته، وسيقول إنه كان يمزح، وإنّ المزاح جزء من ميراث عائلته. المنتج السينمائي، سينكشف سريعاً، لأن لا مقومات لمنتج ستجدها صاحبة الجمال الذكيّ فيه. تاجر الأوراق المالية، مستحيل طبعاً، وليس في الدنيا كلها، تاجر أوراق مالية، مقفر وضئيل، وتافه الحاضر هكذا. فكّر واختلى بإرثه المتفوق في الأكاذيب، منذ أن أصبح، نظرياً، مرشحاً لوظيفة سكرتير في الأمم المتحدة، إلى أن أصبح، نظرياً، مالكاً لمجموعة شركات تيرسو للبنى الخرسانية، منفذ الطرق والجسور الرئيسي في أفريقيا، مروراً بترؤسه، نظرياً، لمعظم مفاوضات السلام بين الدول المتحاربة، ولم يعثر إلا على وظيفة وحيدة وضعيفة جداً، اتخذها مرة تحت ضغط الضرورة: الإسكافيّ، صديق الأحذية الهرمة والممزقة، وظيفة تناسب مظهره، وتعاسته، وامكانياته الحالية التي هي إمكانياته الدائمة مع الأسف، لكنها ليست وظيفة واحدٍ يسعى للحصول على قلب امرأةٍ نضرة كهذه. النساء الجميلات يقدّرن الأحذية جداً، يقدّرن أنواعها، ويقدّرن ألوانها، وكعوبها العالية والمنخفضة، وطريقة رصّها خلف خزائن الزجاج، وتلميعها بالفوط الملونة، وتصاب أرجلهن بالفصام والهوس، لحظة تجربتها، وبعضهن يرقصن منتشياتٍ على إيقاع تلاحمها مع الأرض الصلبة، لكن من المؤكد، والمؤكد جداً، أنهنّ لن يُلقين أيّ نظرة على الحذاء التالف المريض، ولا على الرجل الذي سيسعى لرتقه. لا بأس، سيحصل على حيلةٍ بلا شك، وما أكثر الحيل حين يتعلق الأمر بالركض خلف النساء.

كان ما شاهده هناك وما سمعه من الذين وجدهم متجمّعين، صادماً للغاية، فلم تعد صانعة الشاي متوافرة في المكان، وقد لا تتوافر مرةً أخرى إلى الأبد، هكذا أفهمه ناهوم الإثيوبي، وآخرون، وسأله ناهوم في نفس الوقت بطريقة المراهقين البشعة:

- هل تعرف أببا؟ لماذا تسأل؟

واضطر بإيحاء اللحظة وحدها، أن يجيب:

- نعم، أنا ابن عمها قمزحاي، وأتيت من الحدود الآن، لا بأس ربما أجدها...

ثم انفلت هارباً من المكان، قبل أن يسأله ناهوم سؤالاً آخر، لا يعرف إجابته، أو يختنق برائحة الولد التي تفوقت على كلّ الروائح الرثة، التي يعرفها منذ تشرد، وأدمن التشرد، لكن ناهوم لم يكن في نيته أن يسأل مرة أخرى. كانت عيناه حمراوين وجافتين، وشفته السفلى ملتوية قليلاً، وإحدى يديه ترتجف. تابعه بعينيه حتى خرج من منتجع الساحرات، وعاد إلى رفاقه المتجمعين، يبادلهم الرأي في شأن فرار بائعة الشاي الجميلة، ويحرضهم على نسيانها، وأيضاً يردّد بثقة تامة، وبعكس ما أفهمه لقمزحاي منذ لحظات، أنها ستعود، وتقترن صاغرةً برئيسه شجر، قبل أن تشرق الشمس.

لم يعد قمزحاي بحاجةٍ لأببا، بعدما تركت كنزها وفرّت، وبعدما أثارت الجدل بهذه الطريقة، حتى لو جاءته باختيارها، سيقوم بطردها هو من بيته.

لكن من أيّ بيتٍ يطردها؟

فقد كان هو أيضاً، مثل عبد القيوم قبل مجيء اللاجئة، يقيم في الشارع، أيّ شارع يخطر على بال أحد، في حيّ المرابيع، مأهولاً كان أو غير مأهول، به حياة أو به موت، قابل ليصير مأوى، أو غير قابل حتى ليصير قبراً.

كان يحسّ بالأسف، وتدحرج إلى موقف الباصات العادية التي تعمل بين وسط المدينة والأحياء الطرفية، تعلق بأول باص متجه إلى حيّ المرابيع، الباص الذي لا بد أن تعثر داخله على امرأة تبكي، وطفل جائع، وشاب تطارده الشرطة والوساوس، وكهل يحاول تثبيت سنّ تتأرجح على فكه ولا يقدر.

تعلق قمزحاي، أو لولي، أو... أو أيّ أحد، أيّ هوية، بالباص الكئيب، ويعلم أن أببا التي تنفضت من نعمة موقف السفر، تعلقت به قبله وذهبت.

اقترب الصباح كثيراً، ورحلة الليل التي خاضتها أببا طوافاً في أوحال حيّ المرابيع، بصحبة شبح لم يهتزّ حتى حين هزته، قد أنهكت قدميها، وأسنانها، وخلايا الشعور في داخلها، لقد طافت بالحيّ كله تقريباً، شاهدت أزقةً لم تكن تعرفها من قبل برغم زياراتها المتكررة، شاهدت عرباتٍ أنيقةً متوقفة أمام بيوتٍ من الصفيح، وفكرت في الخالة مستورة، على الفور، ولا تعرف لماذا فكرت فيها بالذات، كان بعض الناس يمرون بجانبهما مسرعين، وحاولت في إحدى المرات أن تشدّ قميص رجلٍ كان قريباً منها، لتنبهه إلى وضعها كسجينة مشيٍ طويلٍ وكئيب، تريد أن تتحرر،

لكن يدها لم تمتد لتشد القميص.

تذكرت أن في حقيبتها القماشية راديو صغيراً تستخدمه للتسلية، في عزلة الليل والكشك الصغير، بحثت عنه ووجدته، أدارته على صوت بلادها، وكان يبثّ أغاني حماسية كلها نصر متخيل، وتحرير شامل للأرض، وعودة للجمال والحب. أغلقته وأعادته إلى الحقيبة، هرولت قليلاً، فهرول مرافقها بنفس الإيقاع.

أخيراً أشرقت الشمس بالفعل، وبلا أيّ إشارة، انفصل قمزحاي عن مرافقتها، واتجه إلى دكّة عريضة من الحجر الخشن، نحتت بإهمالٍ أمام بيت صغير، مشيّدٍ من الطين، ومعروش بالصفيح، كان يتمدد عليها رجلٌ، هزّه، فاستيقظ بتكاسل، وهو يفرك عينيه، لكنه قام وابتعد، ليتمدد قمزحاي مكانه، ويغيبَ في نومٍ مرهق. قطعاً لن يصطاد أيّ أحلامٍ جيدة، واللاجئة اتكأت على حائطَ قريب، وجلست، كانت متعبةً للغاية، ومنزعجةً للغاية، وتتمنى بصدق لو ماتت في ذلك اليوم، أو انقلبت إلى رملٍ تزروه الرياح.

-١٣-

ثلاثة أيامٍ من وقائع منتجع الساحرات المؤسفة، وبالتحديد في يوم جمعة ضاجٍّ، مهموم بالسفر وآلامه، والوداع ودموعه، وتمنياته المعتادة، اكتشف عبدُ الباسط شجر، ولأول مرة، أنه أخطأ في حقّ عدة أشخاص مروا في عمره، ولا سبيل لتصحيح كلّ الأخطاء تقريباً.

أخطأ في حقّ أمه، حين تأخر عن الخروج من الرّحم كما أخبروه، وماتت هي أثناء الولادة. في حقّ أبيه حين أراده نسّاجاً للأسرّة، ليرث عنه المهنة ويطورها، لكنه أبى وتعلم وأصبح معلماً في المدارس، والآن مزروع في موقف السفر، تتأرجح انفعالاته بتأرجح المكان، ويمكن أن يصبح فوضوياً وعراً، إذا ما تحول المكان إلى فوضى.

أخطأ في حق فتاة اسمها البتول، صادفها في حفل تخريج الدفعة التي كان فيها من المعلمين، وتخرجت أيضا معلمة، وأعطاها وعداً قاطعا بالزواج، ولم يكن صادقاً أبداً، لتظل الفتاة حزينة، وصديقة للعزلة، حتى اختفت.

أخطأ في حقّ عبد القيوم دليل، صيّره نداً له بلا أيّ مبررٍ كافٍ، وصيّره على الأرجح منتقماً كريهاً، سيعود من السجن ذات يوم، يحمل البرص والسعال، وقمل العانة، ومئات الضغائن. وأخيراً في حق نفسه، حين ألهاها بلاجئةٍ متوحشة، كانت ستمزق عينيه، وأنفه، وربما تشق إحدى خصيتيه بأظفارها، أثناء شبقٍ مريض.

حقيقة، لم يكن يملك أيّ دليلٍ على توحش أبا، ولا حتى تقصى ليعرف نوع هواياتها: أيّ رياضة تفضل؟ أيّ ركنٍ في المنزل تحب أن تعلق فيه صورها؟ أيّ شريطٍ سينمائي شاهدته وعلق بذاكرتها؟ أيّ لاعب كرةٍ تحبه، إن كانت تحب الكرة ولاعبيها، وأيّ أداةٍ تحب أن تستخدمها في قتل أحد، إن اضطرت إلى قتل أحد؟

أبا تبدو حالمة، تبدو رقيقة، منزوعة جينات العنف، وأيّ عالم أو مؤرخ أو حتى رجل شارع عادي سيردد بلا مشقة:

– آخ... ما أرقّها... ما أروعها... ما...

في شبابه المبكر، كان شجر مغرماً يتتبّع طموحات النساء، وكان متميزاً في التخمين، وتؤكد ملاحقته لطموحات عشر نساء على الأقل، فيهنّ أخته نوارة، وابنة عمه زكية، وفتاة الجيران محبوبة، أنهن لم يخيبن ظنه قطّ، فقد تزوجن بعكس الطموحات، تماماً كما قدّر، من رجال فقراء لم يقدموا لهن الحياة، إلا تعباً، يليه تعب، يليه تعب جديد، حتى اكتهل الأزواج، واكتهلن.

بالنسبة لأبا، هو لم يقرأ طموحها جيداً، في الحقيقة لم يقرأه قبل أن يتقدم لها كزوج محتمل، ولا بعده، ذلك لأن لا فرصة

أتيحت له، إضافة إلى جفاف موهبته في تقصي الطموحات، الذي حدث بتقدم العمر.

كان اليومَ في غاية الصدق، وهو يحاكم نفسه، ويلومها حتى على إلصاق تهمة التوحش بلاجئة ربما لا تكون كذلك. هو مسكينٌ في النهاية، ومن أبناء جيلٍ لم يحظ بقصص حبٍّ خلاقة على الإطلاق، ومعظمهم تزوج من أول امرأة صادفها في أزقة الحياة، أو من امرأة كانت موجودةً في بيت عمٍّ أو خال، أو جدٍّ، أو واحد من بيوت الجيران. وهو شخصياً وعد تلك المدرّسة، وخاف، وتزوج بنت عمه، وعاشت معه أربعين عاماً ورحلت، وكانت طوال حياتها امرأة عادية، بلا أي إبداع أنثوي أو تطور.

بعد ثلاثة أيام من التأرجح، وشيء من الأرق، سيكتشف شجر، إن أكثر الأشياء غموضاً في الدنيا، هي تلك التي تحمل حلّها معها.

هو سعى للاجئة، ويدرك تماماً من دون أن يتشكّل ذلك الإدراك في وعيه بصورةٍ جدية، أنه لم يسع إليها، وإنما سعى إلى الأصفر المطعّم بالذهبي، ذلك اللون المحرّض لرغبته الهشة، الذي أعاد بناءها من جديد كما يعتقد. لقد اشترى متراً من ذلك القماش، ولم يكن رخيصاً حقيقة، وأيضاً كان نادراً لم يشاهده إلا عند أبنا، ولا يوجد إلا في دكان واحد فقط في المدينة، هو دكان الهندي هارون مندرا، أو الخواجة صاحب الظهر، كما يسمى، نسبة لأنه أحدب، وكان من أقدم هنود المدينة، وأول من أنشأ دكاناً للأقمشة النسائية، استعبد به السيدات.

جرب شجر القماشَ في أعواد الخشب المنحوتة بعشوائية، وشماعات الحديد الطويلة، وكلف نحاتاً مبتدئا أن يصنع له تمثالاً من الطين على هيئة امرأة، ليُجري آخر تجربةٍ، وبعدها يستريح. وقد نجحت تجاربه كلها تقريباً.

إذن لترتدي ذلك اللون أيّ امرأة أخرى، غير أبيا، وبصراحة أكثر، لتذهب أبيا إلى الجحيم، وبقمة الصراحة، ليذهب عبد القيوم وكلّ عشاقها السفلة إلى الجحيم معها.

أحسّ بارتياحٍ كبير، وبنشاطٍ غريب بدأ يرجّه، من قمة الرأس، إلى أسفل الساقين، وكان قبل ذلك متعباً، وخاف أن تعاوده حمى القاذورات المؤلمة، وكانت أصابته منذ سبعة أعوام، وبالتحديد، في نفس اليوم الذي انقلب فيه باص غادرَ منتجع الساحرات، متجهاً للعاصمة، ومات في الحادث أكثرُ من أربعين مسافراً، فيهم تقنيون، جاءوا ليبحثوا إمكانية تقوية الإرسال التلفزيوني الرسمي، إلى المدينة، وطبيب بيطري اكتشف طريقة لتناسل الدجاج بلا ديك غبيّ، وكان ذاهباً ليعلن ما اكتشفه، أمام هيئة علمية، وأيضاً ماتت في الحادث نفسه سوسو الطرب، أشهر من كان يردد الأغنيات الهندية في حفلات المدينة.

هو لم يفهم علاقة حمى القاذورات بالخزي، وبالخسارات. والطبيب الذي عالجه بصعوبة، أكّد أنّ ثمة علاقة واضحة، وسخطه شخصياً بعد فرار اللاجئة، وذهاب عشاء العرس، إلى بطونٍ لا تستحقه، كان كفيلاً إذن بإرجاع الحمى، لكنه لم يدعها تعود من

قبل في حالات كثيرة، ولن يدعها تعود أبداً.

تمشى قليلا في موقف السفر، وكان يرتدي حذاء مترفاً من جلد النمر، من تفصيل صانع الأحذية الشهير عنتر جبارة، الملقب بالحاخام، بسبب لحيته وغلظة وجهه، وقبعة القماش السوداء التي لم ينزعها قطّ أمام أحد. وكان هو الحذاء الذي أعدّه لليلة الزفاف البائسة، المنهزمة. كان يرتدي ثوباً جيداً من قماش رقيق أبيض، غالي السعر، يسمّى قماش الزبادي، ويرتدي عمامة من قماش الثوب نفسه، ولو صادفته الآن امرأةٌ بلا مشاكل، وابتسمت له، سيجرها من يدها إلى المحكمة الشرعية، ويتزوجها.

- عبد الباسط شجر نفد من شيطان أبدا... عبد الباسط نفد... عبد الباسط نفد.

كان يردّد لنفسه مبتهجاً، واضطر إمعاناً في تثبيت الفرحة وتوثيقها أن يتغنى بلحنٍ قديم، اسمه "لحن الألحان"، لا يعرف من ابتكره، وكانوا يستخدمونه في ما مضى، في حفلات أعياد الميلاد، وتسمية المواليد الجدد، واستخدمه عدد من العلماء الوطنيين، كصمغ لاصق للبهجة، في تجارب عديدةٍ وناجحة.

في تلك الأيام الثلاثة، تلقى رسالة خطية من مدير بلدية المدينة، تخبره بالتغاضي الرسمي عن استخدامه للقب رئيس موقف باصات السفر لأكثر من عشر سنوات، ومسمّى وظيفته الحقيقي ملاحظ شؤون السفر، لكنه الآن ترقى لرئيس بالفعل، ولا بأس من الاستمرار في استخدام اللقب. استغرب تلك البذاءة المهنية التي لا تعني شيئاً

لأيّ شيء، وتلقى بعد ذلك بيومٍ واحد، خطاباً آخر، من مكتب مدير البلدية نفسه، يخبره أن لا وجود لوظيفة ملاحظ في سلك الوظائف على الإطلاق، وبالتالي فإن وظيفته هي رئيس منذ أن تسلّمها قبل عشر سنوات. وفي اللحظة التي كاد فيها أن يخنق نفسه، من شدة الإرهاق النفسي، جاءه ناهوم الإثيوبي، بنسخة من إحدى الصحف المحلية، ليشاهد صورته مع صور عددٍ آخر من الناس، يزمع تكريمهم من قبل محافظي المدن، بالعاصمة، في العيد الثالث للثورة، الذي سيحلّ بعد شهر.

وصل إلى الكشك الأزرق، الذي كان مغبرّاً، وواجماً، ومغلقاً بالقفل المتين نفسه، الذي وضع عليه تلك الليلة، وتمنى لو امتلك قرار دكّه، لدكّه إذن فوراً، وأقام مكانه مربعاً لزهور الياسمين، أو نافورة صغيرة لترطيب الجو الخانق بسبب عوادم الباصات، أو حتى نصباً تذكارياً اسمه المسافر المجهول، على غرار الجندي المجهول، يخلد أولئك الذين تحصدهم حوادث الباصات في السفر. لكن لسلطة البلدية قوانينها الخاصة التي لا يعرف من يبتكرها، ومنها أن يمنح كشك بغرض النشاط التجاري، في واحدٍ من أهم الأماكن في المدينة، لمتشردةٍ لم يمض على وجودها في البلاد فترة تسمح لها حتى بمعرفة طبيب النساء، الدكتور توم حامد، ومكان صيدلية سيد، إحدى المعالم الكبرى للمدينة، أو دكان الصائغ قمر، الذي لا توجد، ولن توجد امرأةٌ لا تعرف مكانه، ويُمنح لها مع الأسف بوساطة من فاشلٍ مثل عبد القيوم.

لقد فكّر مرةً في كراهيته لعبد القيوم بصورةٍ أكثر تركيزاً، لماذا لا يطيقه؟ ولماذا يستفزه؟ ولماذا يحرّض عليه السلطات كلما وجد فرصة؟ هل لأن عبد القيوم حرٌّ في اتخاذ مواقفه، ويمكنه أن يضيع أو يهتدي بإرادته؟ وبغضّ النظر عن اللاجئة التي لم يمض وقتٌ طويل على حضورها، وتكالب الناس على عشقها، ووقوفه هو وعبد القيوم في الصف الأول، كلّ يحمل سيفه الخاص، لم يكن يحبه، ولطالما كان يحسّ بابتهاج كبير، حين يختفي عن المكان، ويعرف أنه في السجن. الآن وهو يقترب من الكشك المنطفئ، الواجم، الخالي من النكهة، يفكّر:

لماذا لا يحاول أن يحب عبد القيوم؟ لماذا لا يسعى لإخراجه من السجن الاحتياطي، قبل أن يحاكم رسمياً بتهمة خدش الشرف، ويرحّل إلى السجن الكبير؟ لقد خسروا جميعاً، ولم يبق في منتجع الساحرات - موقف السفر، رابح سوى بائعات الشاي العتيقات حواء وسعيدة وسيدة الجيل. انطلق إلى أماكن بيعهنّ، وسؤاله لنفسه بلا ردّ، وكنّ يجاورن بعضهن البعض في تناغم، ويتخذ الزبائن الأبسطة نفسها.

جلس عند سعيدة بالتحديد، وانتبه إلى وجود فتاة حسناء، تجلس لصيقة بها، وتساعدها في العمل. كانت تشبهها إلى حدّ ما، ومؤكد ابنتها، لكنّ ثمة تحضراً ما يكتسي وجهها وهيئتها. ودّ لو كانت ترتدي ثوباً أصفر، مطعماً بالذهبي، إذن لكانت اختباراً حياً للجمال الوطني، إن كان سيعمل على تحريض الذكورة أم لا...

تأمّلها كثيرا، واستيقظ على صوت سعيدة، تروي قصةً عن أسد شهم، وثعلب ماكر، ضايقه كثيراً، وكان يتسلل في أوقات غفواته، فيسطو على صيده من الحيوانات الصغيرة، ويفرّ، وفي أحد الأيام عثر عليه، سجينا في قفص صياد، فكسر القفص وأخرجه.

إنها قصص الحكم والأمثال التي لا تحتاج إلى إبداع في سبيل أن تروى. فكّر شجر، وفي الوقت نفسه دقّ عينيه في عيني سعيدة، كأنه يسألها: من الأسد هنا، ومن الثعلب؟ ومن المؤكد أنها كانت ستجيب بكل صراحة، أنها، وبرغم كل ما حدث، اشتاقت لوجود عبد القيوم، أحد الذين منحوا المكان تاريخاً مذهلاً، مليئاً بالأخطاء والتصويبات.

مشى باتجاه مكتبه، وخيال الفتاة المتحضرة، بنت سعيدة، يتلاعب به، ويستحي أن يسأل عنها، وكل المكان يعرف هزيمته الأخيرة.

غداً سيزور قبر أمه، ليترحّم عليها بضع دقائق، يسألها أسئلة كثيرة، ويلصق أذنه بالقبر انتظاراً لإجاباتها، هذا ضروريّ.

جلس على طاولته المكدسة بالأوراق والأختام، والأظفار المقلمة المتراكمة منذ زمن. ابتدأ يرسم ضبعاً بقائمتين مكسورتين، واكتشف لأول مرة، أنه يستطيع رسم الشعور النفسي، أيضاً. رسم شعور بائعات الشاي المبتهجات بعودة الرزق إلى سابق عهده، في شكل حلوى غزل البنات الهشة التي تذوب سريعاً. رسم شعور أبا الفارّة من وجهه، في شكل غزالٍ مكسّرِ القوائم، رسم شعوره

الشخصي في هيئة شلالٍ صامد ينحدر من جبلٍ ولا يتوقف عن الهدير. وحين فكر في رسم شعور عبد القيوم، انتبه من الرائحة، إلى أن ناهوم الإثيوبي كان قريباً منه، ويتنفس بابتذال في وجهه تقريباً، كان قد جاء ليخبره، للمرة العشرين خلال ثلاثة أيام، أنّ بائعة الشاي الفارّة من ليلة العرس، لم تشاهد في أيّ مكانٍ يُتوقع أن تشاهَد فيه عروس فارّة مثل: مركز الشرطة، المستشفى، البحر، أحياء اللاجئين، خاصة حيّ المرابيع، وموقف باصات السفر إلى العاصمة والمدن الأخرى، وأكيد كان ذكر المكان الأخير، غباءً فذّاً من ناهوم، والعروس فرّت من مكان استقرارها الذي هو موقف باصات السفر. هزّ شجر رأسه، وطرد أنفاس المساعد بمروحة يدوية صغيرة من القماش الأزرق، اسمها مروحة طرد رائحة ناهوم وأمثاله، مصنوعة في الصين بصفة خاصة، وزودته بها البلدية، واعتاد على استخدامها بطريقة مكثفة، بوصفها أداةً حيوية من أدوات العمل...

عاد إلى أوراقه لمحاولة رسم شعورٍ طيبٍ لا يخص أحداً بالتحديد، حين شاهد من خلف نافذته المواجهة لحركة السفر، قريبه الشيشاني أبو المقداد، يرتدي ثوبه القصير، ويحمل حقيبةً صغيرة، زيتية اللون، على كتفه، وخلفه امرأة تبدو كتلة سوداء، لا بدّ زوجته الشيشانية أم المقداد، ولا يعرف اسمها، ولا بد جاءت لوداعه وتحفيزه ومدّه بالعاطفة اللازمة لمواجهة الموت، إن كان ذاهباً في رحلة سيميت فيها أحداً ويحاول أن يموت.

أمسك بمروحة طرد رائحة ناهوم، وابتدأ يهزها وهو يصيح:

- ناهوم... ناهوم.

- نعم سيدي

- هل هناك جهاد في مكانٍ ما في الكرة الأرضية؟

ناهوم كان مطلعا إلى حد ما، ويستطيع أن يجيب عن السؤال، وعن أسئلة أخرى أكثر تعقيداً، ويستطيع أيضاً أن يخترع الإجابة إن كان لا يعرف. حكّ رأسه قليلاً، والمروحة تعمل في يد الرئيس، ثم ردد:

- نعم، البوسنة... القوقاز... جزيرة ترينداد.

لم يبتسم شجر، ولم يتجهّم، وخطرت له فجأة خاطرةٌ غريبة: لماذا لا يؤلف أغنية؟

هو ليس مؤلف أغان، ولا حاول من قبل، لكن الضغوط وتلاطم الأفكار تصنع الشعراء والمبدعين، كما يسمع، وأخبره مرةً شيخ في السبعين قدم من العاصمة، لزيارة ابنته المقيمة في المدينة، وزاره في مكتبه للتعرف إلى آلية ضبط حركة السفر، والسيطرة على انفعالات السائقين والمسافرين، أنه، وتحت تأرجح انفعالاته بين أن يبقى محطماً مكتئباً رفقة زوجته العجوز، وبين أن يتزوج من فتاة يانعة، جاءته فكرة رواية وكتبها، والآن أصبح كاتباً مشهوراً. قدم إليه بطاقة ترويج لامعة، كتب عليها:

أحمد أحمد أحمد - كاتب روائي.

-١٤-

أتى اليوم الرابع وعبد القيوم منضبطٌ في ركوده في سجن الاحتياط محترقاً بالملل، وجمر الترقب، وتوافه الغيرة التي ما ظنها ستكون من توافهه الشخصية ذات يوم، ومفكراً باضطراب في لاجئة منتجع الساحرات، إن كانت على العهد ما تزال، أم تغير أسلوبها في صناعة العشاق، وصنعت من هو أنظف، وأحق بجمالها منه هو عبد القيوم دليل.

فكّر في وجهها ساعة اقتاده العسكر، والتفت ليواجهه. كان وجهَ امرأةٍ شبعانة بألف عاطفة وعاطفة، وليس وجه امرأةَ قد تتعرض للجوع، بغياب طبقٍ مفضل طالما كان يزوّدها بالشبع؟

للأمانة هو لم يشاهد ضحكةً ولا ابتسامة، ولا بوادر رقصةٍ قد تؤدى في ما بعد، لكن في المقابل لم يشاهد دمعة، ولا انكسار ظهر، أو بوادر مغص ستمسك بالبطن، من شدة التوتر.

ورغم أنه لم يكن يحب مقارنة نفسه بالآخرين، بوصفه صاحبَ فضلٍ على اللاجئة يخرجه من دائرة رصّه في طابور طويل، ومحاولةِ

ابتكار تبريراتٍ له كي يوصف معشوقاً، اضطر إلى أن يكون بنفسه ذلك الطابور المخزي، ويحاول بتأنٍّ وبلا استعجال، أن يضع نفسه في موضع يشرفه أولاً، ويشرف الحب ثانياً، إن كان يوجد حب بالفعل.

كان أقصى ما يتمناه الآن، أن تتجمد المواقف كلها، بما فيها النظرات واللفتات والاشتهاءات، عند لحظة اقتياده بواسطة العسكر، ولا يجد أيّ جديد حتى تفكر الفتاة الضابط في أمره، وتطرده إلى الحرية. التفت إلى الحائط، كتب بقطعة فحم وجدها ملقاة بقربه: أحب أبدا، أحب الشاي بنكهة النعناع.

عاد إلى التفكير من جديدٍ في مسألة السجناء الرائعين الذين يزاملونه في المكان لليوم الرابع، وكانوا جميعاً جدداً عليه، لم يصادفهم من قبل، ولعلها المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك: أن يدخل سجناً ولا يعثر على أصدقاء له بداخله. تمشى في العنبر لأوّل مرة، منذ دخل، وكان منزوياً في الأيام الأولى، لا يفارق ركنه إلا في ساعات الأكل وقضاء الحاجة. جلس بجانب آخرين، وتحدث إلى آخرين ليعرف تلك التهم التي حبستهم في سجن الاحتياط، كعادة السجناء في تبادل خامات الأذى والمفاخرة أحياناً، حين يكون المتهم قد سرق خزانة الدولة، أو رشا وزيراً محترماً، أو أضرّ بالاقتصاد العام بشحناتٍ من البضائع المهربة، أو اغتصب امرأة أعلى من سقف خياله كثيراً. ولم يحصل منهم على الكثير. قال له أحدهم، وهو ينظف نظارته الطبية بقماش أبيض ناعم، إنه سارق كتب، سطا على مجموعة نادرة منها، كانت تخص ثرياً معروفاً،

واستغرب عبد القيوم من سرقة الكتب، وكيف يصبح الكتاب نادرا، ثم كيف يدخل أحدهم السجن من أجل كتاب. أيضاً كلمه آخر، وكان يبدو ناعماً ويشبه إلى حدٍّ ما ممثلاً عاصمياً[1]، غير معروف، شاهده مرة يؤدي دور امرأة، وقال إنه محلل اقتصادي، وليس مجرماً ولا لصاً، ووجوده في السجن كان خطأً أسرياً بحتاً، حين أرادت زوجته أن تبلغ عن رجل يعاكسها باستمرار في الهاتف، ويكمن لها في الطرق التي ترتادها، فأبلغت عنه.

وأيضاً استغرب عبد القيوم من تلك الحكاية، وكيف يمكن أن تحدث سخافات مثل هذه في البيوت الوطنية، ولم يبد له الرجل مجنوناً أو حالماً مثل قمزحاي، ليضحك في سرّه للقصة.

كان أحد هؤلاء الغرباء، يجلس منعزلاً في أقصى ركنٍ لعنبر الحجز الطويل، كان يوقد شمعة ويقرأ على ضوئها المتراقص كتاباً اسمه **قصة لقاء دبره كيوبيد**، مرسوم على غلافه يدان رقيقتان مفتوحتان، وباقة ورد أحمر. كان الرجل يشارك سطور الكتاب الانفعالات كما يبدو، فيبتسم، أو يعقد حاجبيه، أو يضحك بصوت خافت. وأيضا استغرب عبد القيوم، من وجود كل تلك الاستنارة، في عنبر قبيح، من المفترض أن يكون مليئا بالفوضى والنيكوتين، وليس بقراء، ورجال ناعمين.

هناك شيء خطأ... لا بدّ، وقد لاحظ هو ذلك منذ البداية حين انتبه إلى أنهم استبدلوا العقيد عمر الكرباج، بواحدة ممتلئة رقةً

[1] أي من سكان العاصمة

ودلعاً وعنفواناً، وتصلح موديلاً لرسامي الغرائز، أكثر من الإشراف على سجن. وحين لاحظ أيضاً وجود الأعشاش والطيور المغردة، وأناقة جبريل، ولد الضبع، بالزي الأبيض، وساعة من سايكو، وحين لم يعثر على مطروفي وكنجي وضحية، لصوص طوابير السينما وأبواب المستشفيات، وولهان قواد حيّ الصهاريج الكبير، وحين ترك ربع سيجارته، خلف أذنه، لم يعتد عليه أحد.

عند الظهيرة، واليوم الرابع ينتصف، فُتح باب العنبر بغتةً، وبدا في الضوء المتسرب من الخارج، شبحُ رجلٍ مألوف يحمل عصا خيزران في يده اليمنى، وكأنه كان يشكو من ألم في الأضراس، لأنّ يده اليسرى كانت ملتصقة بخده. يا إلهي... إنّه عمر الكرباج، العقيد الرائع بالنسبة لرؤسائه في دائرة السجون، وربما لامرأته في المنزل، ولأنسبائه في محيط الأسرة، ولصاحب البقالة التي يشتري منها، والحلاق الذي يقص شعره، والخياط الذي يفصل ملابسه، لكنه الحشرة الضارة بالنسبة للسجناء عامة، والذي شارك مع آخرين، من دول العالم الثالث المختلفة، في ابتكار جهاز تي واي ١٣، المتخصص بنزع الأظفار عن اللحم، بكل قسوة واستهتار.

وقف الكرباج في فتحة الباب، يؤرجح العصا، ويؤرجح نبضات قلب عبد القيوم، ويلغي أفكار رأسه كلها. بينما نهض السجناء الآخرون بغتةً، وهم يجمعون أشياءهم، واتجهوا إلى الباب، ليفسح لهم الكرباج الطريق، حتى اختفوا تماماً، وأعقب ذلك دخول سجناء آخرين، كانوا حقيقيين هذه المرة، لأن عبد

القيوم عرفهم كلهم تقريباً، عرف موسى النجري، زميله ودفعته في اللصوصية، وكان يجلس بجانبه في أول اختبار للكلاب الألمانية، منتصف السبعينيات. ويذكر عبد القيوم، كيف أن الكلب الهتلري الأسود، الضخم، المشحون حقداً على الإنسانية، مزّق سروال موسى بأسنانه، وتلاعب بخصيتيه، ثم قلبه على ظهره، ولهث بعنف عند مؤخرته، وكان ثمة أحجارٌ كريمة نادرة، مسروقة من بيت فخم في حيّ الإغريق، محشورةً هناك، في تلك البؤرة...

عرف أيضا عاصم، أكثر لصوص المنازل تعرضاً للفتنة بسبب الوسامة، حيث دأب على تجاهل قوانين مهنة اللص في كثيرٍ من الأحيان، والاستجابة لإغواء ربات البيوت غير الجيدات، وغير الحكيمات، لدرجة أن زملاءه المخلصين نصحوه بترك المهنة، والعمل وسيماً مغوياً ومستجيباً لحيل الغواية.

عرف مانجو، وأحمد عاطل، وسفير رحال الشبيه بالقتلة في وجهه، وجميع تصرفاته، لكنه لم يقتل أحداً بعد، وآخرين ازدحم بهم العنبر العريض فجاةً، ودخلوا بكل جلال المهن المتواضعة وكبريائه، وكل زفارة الكلام السيئ الشوارعي، وأخلاق الأزقة، ورائحة مياه البرك، وقرصات البعوض. وكان متأكداً أن ربع سيجارته الجديد الذي أخرجه من جيبه صباح اليوم، ووضعه خلف أذنه، ليدخنه على مهل، وعلى مدى اليوم كله، لن يصمد بعد الآن. مدّ يده إلى خلف أذنه، ليعيده إلى الجيب مرة أخرى، فلم يجده، وأراد أن يبتسم، ولن يستطيع أن يبتسم، ذلك أن مجرد الابتسام،

في وجود العقيد الكرباج، يُعدُّ خرقاً للوائح السجن، وذلك العقد غير المكتوب، بين السجناء والسجانين: أن يظل السجناء عبيداً رائعين، والسجانين أسياداً غير رائعين بالمرة.

ماذا يحدث هنا؟

السؤال ليس موجهاً لأحدٍ، لأنّ من البديهي أنّ لا أحد يعرف إجابته، من الزخم الإجرامي الجديد والحقيقي لعنبر سجن الاحتياط، مخزن الإجرام والنيكوتين، منمّي علاقة الشرّ بالشرّ، واللغة الداكنة المموّهة في الغالب، والمختلفة تماماً عن اللغة التي اعتاد على استخدامها المجتمع: الكرة هنا تعني السيجارة، الكوع يعني المخدر، وحين يصرخ أحدهم فجأة: يا أمي، فهذا ليس حنيناً أو ردّةً للطفولة، وإنما يعني أن أعراض توقف شرب الخمر قد بدأت تتفاقم في جسده...

يا أمي... كان عبد القيوم سيصرخها، لكن الكرباج ما زال واقفاً، وقيل إنّ الكرباج نال شهادة في هذه اللغة العبيطة.

ماذا يحدث حقيقة؟

السؤال الداخلي له وحده، عبد القيوم دليل، وليس لأحد آخر مؤكداً.

فجأة رفع عمر الكرباج عصا الخيزران عالياً وهوى بها، بنشاط مذهل، على ظهر سجين دخل لتوه، كان اسمه خليل رغاي، وكان صاحب إنجاز فذّ، دخل به ذاكرة محللي الجريمة، وكان يمكن أن يدخل به موسوعة غينيس، لولا صعوبات متوقعة، في حالته. ذلك

حين سرق حزام سروال الكرباج نفسه، وهو يرتديه، فتمّ تكريمه على ذلك، وبعد انتهاء التكريم، اقتلعت أظفاره، بجهاز تي واي ١٣.

الذي حدث أن عيد السجين انتهى، وكان من المتوقع أن يأتي وفدٌ من العاصمة، في أيّ يوم من تلك الأيام الثلاثة، لتحيّة سجناء الاحتياط هنا، وتذكيرهم بمهمتهم الجليلة في البقاء عبيداً راقين، لا همجاً، وهكذا سُحب الهمج إلى سجن اضطراري موقّت لا يعرفه أحد، وجيء بمتبرعين غير حقيقيين، ليدّعوا الحقيقة. الذي حدث أن الوفد لم يأت، وبقي سؤال عريض لا بد يطرح نفسه:

لماذا كان عبد القيوم، وقبله قمزحاي تيرسو، سجينين حقيقيين، وسط انضباط التزييف؟ لماذا وضعا هنا، وكان يمكن أن يحدثا شرخاً جباراً في نظام الترويج لغير الحقيقي، وتكتشف المسألة؟

كان ذلك خطأً من الفتاة الضابط، بلا شك، أو لعله خطأٌ من الشرطي الذي أرسل قمزحاي وعبد القيوم إلى هنا ناسياً ترتيبات عيد السجين، ونسيت هي أيضا، ذلك أن العيد كان جديداً، وغير مألوف بعد.

قمزحاي، أكيد مرّ بنفس طريق عبد القيوم، وكان حقيقياً، وأكثر من حقيقي، ولولا أن ثمة ثغرات تحدث في الحقيقة دائماً، لما كان في أيّ مكان، سوى السجن الكبير، وإلى الأبد.

عبد القيوم حقيقي بصورة مؤسفة، ولولا وجود لاجئته أبيا، التي هذبت موهبته في الأشهر الأخيرة، لكان قد حقق حلمه الذي يعضّ عليه منذ خمس سنوات، ولم يرد أن يفلته، وهو أن يسرق

ميدالية الذهب التي حصل عليها العداء السابق عوض الكريم دافع، المسمّى في الأوساط الرياضية مئة حصان، من إحدى البطولات الأفريقية، قبل ثلاثين عاماً، ولم ينزعها عن عنقه بعد ذلك قطّ، وقيل أوصى أن تدفن معه حين موته.

أكثر من ذلك، أن جبريل الفراش، ولد الضبع نفسه، كان حقيقياً إلى حدٍّ ما، له سوابقه الواعية في اختلاس النظر إلى نساء الجيران، وتجميع مقولات سيئة عن المرأة والمجتمع من كل مقهى أو دربٍ متسخ يسير فيه، ونشرها. أيضاً كان متحاملاً كثيراً على النزلاء، ويحب أن يفتش جيوبهم، ويستبدل أحذيتهم القديمة، بأحذية أقدم، وربما استولى على ساعاتهم، وأسنان الذهب عند من ركّبوا أسناناً من الذهب، وكم من مرةٍ تتبع آثار نزيلٍ من الذين يملكون حياةً لا بأس بها، في الخارج، ودخل السجن من مسألة سوء طالع، حتى عرف بيته، وذهب محاولاً أن يحظى بامرأته. ولو أجريت تحريات ملهمة، ودونت نتائجها بنزاهة وصدق، لورد فيها شيءٌ عن عمر الكرباج نفسه، بوصفه من الحقيقيين، والفتاة الضابط نفسها، حين كان اسمها نجاة الرمانة، قبل أن تصبح سيادة النقيب، كم علكة مضغتها ونفختها كبالون طرقعته في وجوه الناس؟ كم حذاءً عالياً ارتفعت به عن الأرض عدة سنتميترات مغرورة؟ وكانت تتلاعب بعواطف عيال الجيران، وطلاب المدارس، وكثير من الكهول المتصابين، وواعدت في إحدى المرات ثلاثين شاباً، في الوقت نفسه، والمكان نفسه، ولم تأت بالطبع، وبقي الموعودون مكدسين بنفاد الصبر، يحتكون

ببعضهم، يتشاجرون، إلى أن عرفوا وتفرقوا.

عبد القيوم لم يكن يملك أفقاً متطوراً يمكنه من السعي خلف منفذي خدمات السجون الرديئة، أمثال عمر الكرباج، وطاهر بليلة، وكاروم، وغيرهم من الذين عاصرهم منذ زمنٍ بعيد، ولا يزال بعضهم في الخدمة حتى الآن، وإلا لكان قد كتب السجون في مذكرات، أفضل مئة مرة من تلك التي يكتبها البعض بسطحية عالية، ويحصلون بها على الصيت والجوائز. ويذكر أنه في مرةٍ نادرة جداً، وبعدما تعلم القراءة والكتابة وأصبح يستطيع الفهم بسهولة، شاهد ورقة في يد أحد السجناء، قال إنه عثر عليها في محفظة سرقها، وخبأها من التفتيش، فردَها عبد القيوم وقرأها... كانت قصيدة، لم يفهمها جيداً، لكنه فهم أنها شيء سحري يمكن أن يساهم في تغييرٍ ما:

أنا جسر الحطب.
أنا النخلة التي داستها ذبابة.
أنا الرقدة الطويلة،
لراقدٍ في رقدة طويلة.
والرقدة القصيرة جداً لمتعجل
يودّ اللحاق بفتاة.
أنا قصيدة الشاعر
والشاعر قصيدتي.
كتبت نفسي وكتبني الشاعر.

وسنكتب معاً فتاة الجيران،
وربما نكتب تلك الغجرية،
نسميها حمامةً... بجعةً،
أو دكّةَ الطين.
وسنكتب في أيّ وقتٍ
لا نكون مشغولين فيه،
رائحة انتصارٍ
أو رائحة خيبةٍ... لا فرق.

تذكر عبد القيوم تلك القصيدة، بغموضها وبما فهمه منها وما اعتقده من مقوٍّ فعالٍ بداخلها، واندفع نحو الكرباج ووقف أمامه:

– أنا عبد القيوم دليل جنابك. أريدك أن تسمعني.

الكرباج يعرفه جيداً، ولا يحتاج إلى ذلك التعريف. أكثر من ذلك، فقد شارك به مرةً في مسابقةٍ محلية تخص ضباط السجون، وهي إصابة الهدف الموضوع على رأس سجين، وكان يضع الطماطم والبصل على رأسه وهو مقيد، ويصيب الهدف.

– عبد القيوم دليل جمعة.

ردّد العقيد:

– اللص المخضرم، عامل رش الجراد الصحراوي الآن، والعاشق الكبير في منتجع الساحرات. لماذا أنت هنا؟ أقصد كيف كنت هنا في الأيام الماضية؟

– لا أدري، كنت هنا... لأنني.

تلعثم عبد القيوم، ولا يعرف الإجابة، لكن العقيد الكرباج عرف. هناك خطأ جاء بواحد حقيقي، في زمن غير الحقيقيين. في الحقيقة باثنين وليس واحداً، فقط خرج قمزحاي سريعاً، ولم يكن مؤثراً.

عبد القيوم نفسه لم يكن مؤثراً في احتكاكه بالناعمين الراقين، ولم يهتم بهم إلا قبل خروجهم، حيث أنفق الأيام الأولى معهم، وكأنه ليس مع أحد. كان يفكر في اللاجئة فقط، يفكر في يومها الذي لم يعد يحرسه، في ساقها إن انكشفت، صدرها إن شوته النظرات، وتلك الغرائز التي يعرفها، ترى هل سمح المكان لمعشوقته أن تحتفظ بذكرى رجل؟

رفع العقيد الكرباج عصاه فجأة، هوى بها على كتف عبد القيوم، وظهره، وساقيه، وسط صفير السجناء الآخرين، الحقيقيين، ووجد عبد القيوم عقله مشلولاً للحظات، قبل أن يمسك بالعصا، يكسرها بكل قوة تبقت لديه إلى عدة قطع، ويلقيها بعيداً.

كان كلّ شيءٍ قد انتهى، وبدلاً من التحرش المزعوم بامرأة بلهاء، اسمها المدسوسة، أودعه سجن الاحتياط، وكان يمكن أن يخرج منه في أيّ لحظة، كما حدث مع قمزحاي، الآن يرتدي تهمة وعرة، كسر عصا رسمية أثناء تأدية واجبها، تمّ تثبيتها بالدقيقة وأقوال الشهود المضطرين لأن يشهدوا، وتمت محاكمته سريعاً بستة أشهر كاملة، ورحّل إلى السجن الكبير، حيث الشقاء أكثر تعقيداً، والتذكارات المكتوبة على الحوائط أكثر عقلانية ونضوجاً، والحنين إلى الحرية قد يستغرق زمناً طويلاً حتى يتلاشى عن الصدور.

-١٥-

لا بد أن أبا نامت، ونامت بتأزم شديد، وهي متكئةٌ على جدارٍ طيني قبيح الشكل، وخشن، في أحد صباحات حيّ المرابيع المبكرة، بعد ليلة مشيٍ عنيدٍ ومنهكٍ، استهلك طاقة القدمين بالكامل.

كان جهداً غير ضروري بالمرة، بذلته بلا رغبةٍ منها، وهي تحازي شبحاً غريبَ الأطوار، يعاني من الأرق كما يبدو، أو لعله من سلالة تعشق مشي الليل، وتترنح في الصباح.

في المرة الماضية، حين عرفته، واكتشفت بجمالها الذكي، تلك التفاهة الكبيرة التي يحملها، فكرت في اسمه كثيراً. لم يكن اسماً مشهوراً في بلادها قط، ولا صادفت أحداً يحمله من قبل.

ماذا يعني قمزحاي؟ ماذا يعني تيرسو؟

فكّرت في طوائف كثيرة نسبته إليها ولم تبد النسبة عادلة. ليس يهودياً ولا نصرانياً ولا بوذياً حتى، ولم يكن أصلاً في بلادها طائفة بوذية لها معتقداتٌ واضحة. شكله عادي، وجهه يمكن أن يكون وجه أبيها أو عمها، أو أحد إخوتها، أو أيّ مقاتل من مقاتلي الجبهة

الشعبية التي تسعى لتعيد البلد إلى أهلها. لم تسأله في ذلك اليوم عن معنى اسمه، لأنها قررت أن تهجر سيرته تماماً، منذ أول جملة فسّر فيها الأكاذيب التي ضفرتها في حلم مصطنع، بأكاذيب أكبر في تفسير كلاسيكي خالٍ من الإبداع. لم تكن تظن بأنه سيعود إلى حياتها أبدًا، ولا حتى مجرد طيف، لكنه عاد، وعاد بأخلاق حميدة للغاية، رافقها في ليلها الموحش، وأخافها هو أيضاً، والآن تفكر في فضله، ولولا مرافقته السخيفة تلك، لربما كانت ضحية، أي ضحية لأي جريمة من المؤكد أنها سلوكٌ عادي في حيٍّ مثل المرابيع.

النازحون في أيّ مكان، بما يأكلونه ويشربونه من ظلم واستخفاف، هم في الغالب رواد فن الجريمة والمجددون في نهجه. الآن تمسك بالهدف النبيل لمرافقة قمزحاي لها حتى يرحل الليل، وتفكر أنه ربما عرف بطردها من صداقة أسرة تاجر المشغولات المفقود، وصعوبة أن تعثر على مكانٍ آخر في ذلك الليل، ورافقها عن عمد.

لقد كانت متاحة بسخاء في وضعٍ من أوضاع الرعب اللذيذ. ولم يلمسها، كان صدرها يلهث متسارع الأنفاس، وشفتاها كبيرتين ومنتفختين بورم الخوف، وجسدها كله خادماً مطيعاً للذة الرعب، لكنه لم يلمسها. فكّرت مرة أخرى باضطراب، لعلها ليست من نوع النساء الذي يفضله... أغضبها ذلك، فلا امرأة تودّ أن تصبح نوعاً مفضلاً عند البعض، وغير قابل للتفضيل عند البعض الآخر. المرأة مفضلة دائماً، وكل رجل، حتى لو كان عدواً، من المفترض

أن يفضلها. وأيضاً هنا ثمة سلوك يلغي افتراض عدم التفضيل، وهو أن قمزحاي تيرسو أرادها ذات يوم عشيقة أو زوجة، وجلس معها على دكة الطين، وفي عينيه شهوات الدنيا كلها.

جمالها ليس غبياً أبداً، لكن حتى الجمال الذكي يمكن أن يتغابى، وأن لا يفكر مطلقاً في احتمال البحث عن حياة أفضل. قمزحاي المتشرد كان يبحث عن حياة أفضل عند واحدة لديها صنعة، وقابلة للتطوير إلى أفضل من بيع الشاي، وحين فرّت من مكان الصنعة، تعذّرت المصلحة، وطلق رغبته في امتلاكها...

كانت في قمة الإرهاق، وتتجاذبها الأفكار، سلبية – إيجابية – سلبية – إيجابية – سلبية، بلا نهاية، ولولا الخوف من أن تسقط في المسافة بين الحائط الذي اتكأت عليه، ودكة الطين الموحلة، حيث يرقد تيرسو، غارقاً في نوم المشردين البليغ، لركضت إليه. هزّته بعنف، استلّت من حلقه تفسيراً رائعاً ونبيلاً، لمرافقته لها طوال الليل.

كانت مرهقةً ونامت بالفعل متكئةً على الحائط، ولا تدري أن الصباح مكتملٌ جداً، والنشاط ابتدأ أو انتهى في حيٍّ بعض مواطنيه ليليون، وبعضهم نهاريون، وأن هناك كثيرين مثل قمزحاي، ابتدأوا نومهم، والفجر يطلّ من خلف الظلام، وكثيرين مختلفين عنه وقد ابتدأ يومهم. لم تعرف أبداً أنّ ثمة قصةً حديثةً في حيِّ المرابيع، سمّوها امرأةً نظيفةً نائمةً، كانت تروى الآن بحماسة شديدة، حتى من أشخاص عرفتهم ذات يوم، واحتفلوا بجمالها، ويستعدّون الآن للّهو بها إن عثروا على فرصة، وأن جماهير عريضة بمن فيهم النساء

والأطفال، قد طافوا بهيكلها النائم، واستمتعوا بما وهبتها الحياة من نوم متقن ومنسوج بفن، برغم المأساة، فيه تنفسٌ هادئ منتظم، وابتساماتٌ عفوية بين حين وآخر، وحكٌّ للخد وأسفل البطن، وكابوسٌ طفيف جاء وانقشع، وأخيراً اهتزازٌ رائع، انتهى بخمودٍ لذيذ، ثم انفتحت العينان.

استيقظت أبيا، ولا تدري كلّ ذلك، نهضت مذعورةً ولا تصدق أنها كانت تنام في الشارع، وشاهدها كلُّ هؤلاء، وكان الناس قد تفرقوا حين نهضت، لكنها لمحت كثيراً من معارفها بينهم. نفضت ثيابها، واطمأنت على حقيبتها التي كانت تحت رأسها. اطمأنت أيضاً على صرة المال والذهب، وكانت في مكانها تختبئ بين الثديين. مدّت بصرها في المكان، كانت الدكّة التي تمدّد عليها قمزحاي، خالية من هيكله النحيل، وثمة أطفال حفاة يلعبون بقربها، وكانت ثمة سيارة أجرة قديمة ومنهكة تعبر وقد ربطت بعض الحقائب الكبيرة على سقفها بحبل متين، بينما ميزت داخلها أربع نساء رأينها وأدرن وجوههن للناحية الأخرى بسرعة، ولعلهن شتمنها أو تحدثن عنها بسوء. كنّ زوجة تاجر المشغولات الذهبية المفقود، وابنتاها المراهقتان، والخالة مستورة، نجمة حي الصهاريج، صاحبة السمعة الجيدة في جلب الخامات.

انهارت أبيا، وتحس بوجع في قلبها، وثقل غريب أسفل بطنها، جلست على الأرض مرة أخرى ضامة ساقيها إلى بعضهما، وقد سمحت لعينيها الكبيرتين بالبكاء بكلّ ما تستطيعان أن تنتجاه من

دمع، العينين نفسيهما اللتين فكر قمزحاي في أن يجعلهما ركيزتين أساسيتين لمقهى الحزن الذي فكر في افتتاحه، ولم يحدث.

الآن فقط أحست بالوحدة والفراغ، والموت المؤكد، أحست بالخسارة الفادحة، وبدأت تتلفت بجنون، بحثاً عن قمزحاي تيرسو، الذي بدا لها الآن قشةً وحيدةً، يمكن أن تتعلق بها وهي تغرق، في ظل عدم توافر أطواق النجاة، لكن قمزحاي لم يكن موجوداً، وليس من المحتمل أن يوجد في حيّ المرابيع، والمدينة كلها، مرةً أخرى. لقد أصبح نظرياً وداخل أحلامه فقط، رئيساً لجمعية الصداقة الإريترية العالمية، التي مقرها عاصمة الوطن البديل، وقد هبّ من نومه الصباحي ذلك بكل غطرسة، ليذهب إلى موقف السفر، يتعلق بأول باص ذاهب للعاصمة، ليتسلّم مهام منصبه. كان مغبراً وجائعاً ومسكيناً جداً، حذاؤه ضيق، وسرواله يسع هيكلي رجلين بالغين، وقد تبقت له سيجارة روثمان كينغ سايز، وحيدة، قد لا يجد فرصة لتدخينها أبداً.

ابتأست، وعادت تفكر في عبد القيوم من جديد، تتمنى لو خرج من السجن، وجاء يتبع آثارها. ستقول له إنها أحبته، وفرّت من زواج شجر من أجله، لن تكون صادقة حقيقة، وتعرف أن فرارها كان من أجل الأحلام، وخوفاً من تحطم الأحلام في منتجع الساحرات، لكنها ستعاود كسبه، وسيعود لحمايتها من جديد.

ترى كيف قضى ليلة البارحة؟

لو استطاعت الآن، ستذهب إلى السجن لتتفقده، لا...

هي تستطيع بالفعل، وستذهب بالفعل، ستبكي أمام الحراس، ليدخلوها، وستبكي أمام الضباط لتراه، هي لا تعرف مكان السجن، لكنها ستجده.

امتلأت يقيناً رائعاً في تلك اللحظة، بأنّ الحرب نشبت في بلادها من أجل عبد القيوم دليل، وهي شخصياً، الهدية الجيدة التي استطاع الفرار المرعب الخطر أن يستمرّ حتى يوصلها لعبد القيوم دليل، وقد جاء الوقت ليتسلّم هديته.

ابتسمت بإشراقٍ واليقين قد تمكن منها لدرجة أن امرأةً تمرّ في الطريق تنادي: يا مرداي، سمعتها تنادي يا عبد القيوم، وأنّ طفلاً صغيراً متسخاً وفضولياً، في الرابعة من عمره، جاء يركض نحوها، وقبلها في خدها، سألته عن اسمه: قال ساهي، وسمعته يقول: عبد القيوم.

ستضع حقيبتها أمانة عند أحدٍ ما وتذهب، لكن عند من؟ لا يوجد في المرابيع أحد، وأسرة تاجر المشغولات المفقود، الآن تنتهك في بيت الخالة بلا شكّ، وتلك المرأة قريبة عبد القيوم التي آوتها عند حضورها، وقبل أن تستقر، ماتت منذ شهر، وإلا لفرّت إليها حين تركت منتجع الساحرات. لا أحد... لا أحد.

ستحمل حقيبتها معها.

نهضت واقفة، وهي تحسّ بنشاطٍ مجنون يتلاعب بجسدها، حين شمت بغتة، رائحة سمك مزعجة ومدرة للغثيان، تضرّ حاسة شمها بقوة، وتسيطر على المكان.

-١٦-

كان ناهوم عرجا يقف أمام أبا، مبتهجاً، وضاحك العينين، على رأسه طاقية زرقاء من القماش، شبيهة بطواقي رعاة البقر، وحول عنقه شالّ أحمر.

وبرغم أنها لم تتوقع أن ترى ناهوم في حيّ المرابيع، ولا كانت تتوق لصحبته في يوم ما، إلا أنها تذكرت تلصصه عليها وهي نائمة في كشكها الأزرق، في أيام عديدة، ورغبته في الزواج بها، تلك التي طرحها في موقف السفر ذات يوم، وتقبل رفضها مرفوع الرأس، وفهمت على الفور، أنه يعمل من خلف رئيسه شجر، وعرف بطريقة أو بأخرى، أنها موجودة في حيّ المرابيع، وجاء خلفها.

ترى هل جاء لإنقاذها بلا هدف؟ أم سيطرح مسألة حبه عليها من جديد؟.. أم سيرتكب حماقة فيها؟ أم... ارتعدت، ولم تستطع أن تكمل الفكرة.

كانت رائحة السمك المتخثر، مع التشتت الهرموني والتوتر

اللاهث الذي بدا يتعرى في سلوك ناهوم عرجا، قد وصلت إلى درجة لا يمكن أن يحتملها ناهوم نفسه، ولا حتى أمه. أرادت أن تسأله عن شيءٍ ربما يخصّه أو يخصّ عبد القيوم، أو يخصّ العرس الذي تمزق، أو يخصّ مجرّد حجر ملقى في منتجع الساحرات، ولم تستطع من غثيان مؤلم، صيّرها في لحظةٍ، تعسةً جداً.

بركت على الأرض واستفرغت الجوع كله، لأنها لم تأكل منذ نهار أمس، ولم يبق في معدتها جوع على الإطلاق، مثلما لم يكن فيها شبعٌ من قبل.

كان ناهوم عرجا، كما يبدو، يدوّر بعض الأفكار في عقله ويضطرب بها، كان يرفع يده في الهواء ويخفضها، يغمز بعينه، أو يحرك شفته، أو يلوي حنكه، ويحك أنفه، ويبدو أنه استقرّ على فكرةَ ما في النهاية، أمسك أبا من يدها، شدّها بقوة إلى بيت طينيّ مقفر ومهدّم تقريباً، قريبٍ جداً من مكان إعيائها، كان يعرفه، ويستخدمه باستمرار للأغراض المؤذية في الغالب، حين كان يفلت من حصار رئيسه شجر، ويزور حيّ المرابيع، وقطعاً له أصدقاء هنا يؤازرهم ويؤازرونه، ينفعهم ببعض الأشياء وينفعونه بالسكوت التام، وتحريض الآخرين على عدم معرفته وإنكاره تماماً، إن حدث وآذى أحداً هنا.

ناهوم بدا وكأنه صاحب البيت، حين أدخل أبا مستخدماً بروداً مضطرباً.

– ادخلي... سيدتي الجميلة. لا تخافي، أنت في حمايتي...

وستقيمين في هذا المكان، حتى تتدبري أمرك.

كانت خائفة بالفعل، لكنها في شبه شللٍ لحواس الجمال الذكية التي كشفت قمزحاي من قبل، وكشفت كثيراً من حيل الشبق حين التفّت حولها، وكان يمكن لو أنها استيقظت لحظةً واحدة فقط، لاكتشفت مغتصباً أكيداً، وقاتلاً تخيلياً، في سبيله للهبوط إلى الواقع، وإنهاء حياة ليست سعيدة قطعاً في الوقت الحالي، لكنها تملك مقوّمات السعادة المستقبلية كلها.

حين انتصف النهار في حيّ المرابيع، المتسخ، المتواطئ مع اللعنة، وغيرها من الموبقات، كان كلّ شيءٍ قد انتهى. لم تكن ثمة لاجئةٌ مشردة، مليئة بالأحلام، وهاربة من ليلة عرسٍ وغدةٍ، قد دخلت حيّ المرابيع قطّ، لم يكن ثمة سجينٌ سابق اسمهِ قمزحاي تيرسو، أو أبرهام لولي، قد أقام مشرداً في الوحل ودكك الطين قطّ، ولو عرض ناهوم عرجا على أكفأ نمّامي حيّ المرابيع، وأكثرهم فقراً وحاجة إلى المال، ومنح المال من أجل أن ينطق، لصرخ بلا أيّ تردد بأن هذا الشاب، ذا الرائحة الزفرة، لم يكن في حيّ المرابيع قطّ، في أيّ يوم من الأيام.

كان ناهوم مشوّه الوجه بصورة مرعبة، خرج من بيت الطين يلهث، يبحث عن الهواء بجنون، ويحسّ به بعيداً جداً عن الرئتين. لم تدوّن عيناه أيّ تاريخ مميز. قد يذكر، ذات يوم، تلك النظرة المترجية الجميلة حين خاطبت عينيه. لم تسجل خريطة يديه اللتين استخدمهما في إنهاء طموح أعذبِ لاجئةٍ طموحة،

ربما لا تتكرر مرة أخرى في الدنيا. أيُّ ملمحٍ ناعم وشديد النعومة لعنقٍ كان يمكن أن يحتمل قلاداتِ الذهبِ والزمرد، بلا كللٍ. كان يمشي ويداه تخبّان قبله، وقدماه سريعتان برغم خلل التوازن، وحين تعلّق بالباص الذاهب إلى وسط المدينة، كان بلا أيّ ذاكرة، ستعود إلى الوراء قليلاً أو كثيراً. استحال ناهوم العادي الذي سيذهب إلى عمله في منتجع الساحرات متأخراً ذلك اليوم، وسيخبر رئيسه عبد الباسط شجر، وبشكلٍ يومي، ولزمنٍ طويل، أنه لم يعثر على العروس الهاربة في أيّ حيٍّ أو جهةٍ يتوقع أن تكون انزاحت إليها.

بالنسبة إلى الضحية، لا ضجة اعتيادية أو غير اعتيادية ستحدث أبداً، والتي كانت تجمع الأنظار في تفاصيل حياتها، لن تأتي بأيّ نظرٍ ليتسكع في تفاصيل موتها. اللاجئون يعرفون الموتَ جيداً، يعرفون مداخله ومخارجه، من أيّ زاويةٍ في الطرق يبزغ، وفي أيّ ساعةٍ يختفي. يعرفون الميتين، ويتوقعون وجود الجثث، حتى في قدور الحليب، وأجولة الدقيق الإغاثي، وابتسامات الأطفال. قد لا يأتي أحدٌ إلى خرابة ناهوم أبداً، وقد يأتي البعض ليستريحوا أو يسلتذوا أو ينتحروا حتى، وسيعثرون على امرأة ميتة هناك، ربما دفنوها وهم يغنّون، وربما ظلوا يلهون بأجزائها حتى تمحى، وحتى لو تخثرت جثتها من دون أن تُكتشف، فلا أحد ينتبه، أو يحاول أن ينتبه.

امرأةٌ ميتةٌ لكن بلا قاتل، لا وجود لقاتل في حيّ المرابيع أبداً.

ثم لتأتِ فرصةٌ غريبة لم يكن ناهوم يتوقعها قطّ، حين تحبه امرأةٌ من هنغاريا، كانت في السبعين وعالمة اجتماعيات، تنقّب وبمصادفة بحتةٍ عن أصل الروائح البشرية في العالم الثالث. كان ناهوم ضالّتها الذي شمّته في موقف السفر، وهي تهبط من باص قادمٍ من العاصمة، ولم تكن في حاجةٍ لتنقيب طويل عن آخرين يثون الروائح عينها، فقد أغناها ناهوم، ورافقها إلى حيث توجد آثارٌ هنا وهناك. كان سعيداً بالفعل وهي تعلمه اللغات الشرقية، وبدلاً من أن تسدّ الأنف وتخاطبه بلا شمٍّ كما كان يفعل الآخرون، أو تستخدم مروحة مكافحة رائحة ناهوم المتوافرة حالياً في الأسواق، وصار البعض يستخدمونها، كانت تفتح منخارها أكثر وتسمح لأكبر قدرٍ ممكن من الرائحة أن يتبختر في حاسة شمها كله، ثم تبرك على الورق الأبيض، تدوّن ملاحظاتها، وفي اليوم الذي قررت فيه أن تغادر، غادر معها، حبيباً مبجلاً، وصاحب ميزةٍ لا توجد عند الكثيرين.

عبد الباسط شجر، ظلّ قرابة الستة أشهر بلا نومٍ منتظم. وقد احتلت اضطرابه صورةُ تلك الفتاة الجذابة، ابنة بائعة الشاي التي لم يشاهدها مرّة أخرى في منتجع الساحرات منذ تلك المرة، ويكاد يجزم أن أمها خافت من نظراته التي التهم بها عنفوانها، فلم ترد إقحامها في نزوات مسنٍّ لعين مثله مرةً ثانية، فخبأتها. كان يُلبسها في أحلام يقظته المضطربة، ذلك الثوب الأصفر المطعّم بالذهبي، وينتشي، يخاف أن يسأل عنها، وتتلاشى هيبته في المكان تماماً،

وكان جزءاً هاماً من تلك الهيبة قد تبخّر أيام أبيا وعبد القيوم، وليلة عرسه الدائخة.

وحين استطاع أن يسأل في النهاية، وبطريقةٍ جعلها أبوية للغاية وتشبه طريقة الجدّة التي ستهب أحدهم حلوى، أو تتبرع بتذكرةٍ له لحضور السيرك، أخبرته سعيدة، وفي فمها ابتسامةٌ بعيدة عن كل معنى سامٍ، أنّ ابنتها سعاد، قد تجاوزت الأربعين منذ زمن، لكنها تبدو فيِ العشرين، أو أقل، وأنها تزوجت منذ سبعةَ عشرَ عاماً، ولديها جيشٌ من العيال تحاول رعايتهم ولا تستطيع، وأنها أيضا بالمناسبة، لا تحبّ الأصفرَ المطعّم بالذهبي ولم يحدث أن ارتدته في حياتها كلها.

صدم عبد الباسط حقيقةً، صدم من شيئين: أن يستعصى عليه العمر المفترض للفتاة، ولا يستطيع تقديره، وأن يعرف بأنّ سرّ نشاطه العظيم قد انكشف ولا سبيل لإخفائه بعد اليوم. أراد أن يلعن ناهوم عرجا، ولعنه بالفعل. كان حكيماً جداً حين قرّر أن يتمشى في موقف السفر قليلاً، يتسلى بابتسامات النساء، حتى إذا ما راقت له ابتسامةٌ سعى خلفها.

كان أغرب ما في الأمر أن جميع الابتسامات في ذلك اليوم راقت له، وجميع النساء اللائي توافرن في المكان، بمن فيهنّ بائعات الشاي المسنّات، كنّ بمثابة امرأةٍ واحدةٍ ليست شهيّةً وليست بشعة. ولأنه نسي عبد القيوم ونسي أن الرجل قد يعود مجدداً، وربما يتسلى بخصوصياته ويهلكه، وأقنع نفسه بأنه في السجن

من أجل عصا العقيد الكرباج الحكومية التي قام بكسرها، كما أخبروه، وليس من أجل مؤامرة دبّرها له، لم يخطر عبد القيوم أبداً في باله. كانت فكرته الأخيرة أن يستريح قليلاً في إجازة مفتوحة، وترك الأمور تجري في المكان كما تجري دائماً، وبوجود مساعد جديد، جاء بديلاً لناهوم عرجا، كان بلا رائحة، ويستطيع النيل من التفاهات وإعادة كلّ شيء إلى حقيقته في الوقت المناسب.

المفاجأة الأكبر أنه، ولسبب مجهول للغاية، بحث عن البتول، تلك المدرّسة التي صادفها في أول حياته، منذ أربعين عاماً، واتفق معها على الزواج، وتركها. كانت عجوزاً حين وجدها، تحمل أكثر من إثني عشر داءً مزمناً، ألبسها الأصفر الذهبيّ، وانتعش.

-١٧-

كانت حدة الغليان في دم عبد القيوم قد خفّت قليلاً، وهو ملتصقٌ بالكشك الأزرق الواجم في المكان. ابتدأ يعثر على أفكاره الخاصة جداً، ويحاول أن يكبلها في ذهنه. في الماضي، وقبل أن تشرق ساحة السفر بأضواء أبيا وقبل أن يتنفس هو وغيره بعطورها الرهيبة، كان السجن مكاناً جيداً لقضاء عدة أشهرٍ بلا تجاوزات، الأشهر التي تخمّر أفكارَ المهنة وتبرزها كاملةً، الأشهر التي لن يضطر فيها إلى أن يلهث ويجري ويتسربل بالظلام حتى يعيش. وحين جاءت أبيا وجاء الحب، لم يعد يثق في السجن، أو يريده، ولطالما تمنى أن تنتزع تلك السيرة غير المبجلة للسجون من ماضيه، ويقف عاشقاً مغسولاً أمام بائعة الشاي الصبية.

لكن منتجع الساحرات ليس بساطاً من الأخضر الشفيف، ليس ظلاً موثوقاً في إظلاله، وليس قميصاً جيداً يمكن أن يلبس بارتياح.

عبد الباسط شجر، ناهوم عرجا المراهق، صاحب رائحة السمك، عباس الموت المغسول بالمبيدات، الدرويش، بائعات

الشاي اليابسات، والمدسوسة، كلٌّ تآمر بحسب إمكانياته، ووضعه، لتأتي عصا العقيد الكرباج الحكومية وتتكسر على يديه، مضيفةً للشقاء شقاءً أكثر.

هذا ما حدث بالفعل، لكن أين ذهبت أببا؟

هل من الممكن أن تكون خيالاً لم يأت أصلاً؟ ولا توجد لاجئة فاتنة بهذا الاسم؟ وكل تلك القصص التي وقعت والتي حكيت، مجرد أوهام أحدثها الخيال الرديء الوسخ لواحدٍ متسخ مثله؟

ربما، هرش رأسه بيدين ترتجفان، انزاح قليلا عن الكشك الأزرق، ودار حوله، يتحسسه... هو متأكد من أنه صنع هذا الكشك، متأكد من أن نجارين يعرفهم أهدوه الخشب والمسامير والطلاء الأزرق، وأنّ عمالاً وخفراء في البلدية سعوا معه لاستخراج ترخيصِ الأرض ونشاطِ بيع الشاي لامرأةٍ، ونجحوا، لكن أين تلك المرأة؟

انتبه إلى أن القفل يبدو مكسوراً، ولم يكن قد انتبه من قبل، أمسك به، حركه فانزاح. نزعه، فتح الباب وانسلّ إلى داخل الكشك، أضاء الكهرباء وعطس.

كان فراش أببا الصغير الموضوع على الأرض، مغبراً، حاجياتها القليلة المتبقية من شاي، وأدواتٍ لصنع الشاي، وبعض الملابس، وأدوات الطعام، مغبرةً وساكنة. قلة الماء التي كانت تشرب منها، يابسة، وثمة رائحة قوية، لعلها رائحة موت، أو رائحة سمك متخثر، تنبعث في المكان. أخرج الخنجر الملتوي من جيب

سرواله، دار به في المكان، يقاتل عدواً غير مرئي، ثم غادر الكشك وهو يرتعش.

في وسط منتجع الساحرات، بين خمود الباصات، وبدايات الصحو مع اقتراب الفجر، وقف عبد القيوم يلهث، وبلا أيّ تفكيرٍ ربما يزعج قراره، أو يؤجله، رفع الخنجر الملتوي المستعار من أحد أعراب المدينة، عالياً، وهوى به في اتجاه قلبه، لكنه توقف والخنجر في المنتصف بين الموت والحياة، ألقى به بعيداً واتجه يترنح إلى الشارع.

هبطت من باصٍ قادمٍ من حدود إريتريا هرباً من نار الحرب في بلادها. جمال أخاذ هبط في المكان الخطأ، بلا سند ولا مال ولا مأوى.

اسمها أببا تسفاي، امرأة بنكهة أخرى.

عبد القيوم دليل جمعة، الذي تمرّس في فنّ السرقة ويعيش مشرّداً، لمحها. فهبّ إليها، ونصّب نفسه حامياً لها، وأحبّها حبّاً بدّل حياته.

غير أن القدر رسم نهاية أخرى...

أمير تاج السرّ روائي سوداني. وصلت روايته "صائد اليرقات" إلى القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية ٢٠١١، وتُرجم عدد من أعماله إلى الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية. صدر له عن دار الساقي "إيبولا ٧٦" و"اشتهاء" و"مهر الصياح".


ISBN 978-6-14425-883-5
DAR AL SAQI
دار الساقي
www.daralsaqi.com
9 786144 258835 >